

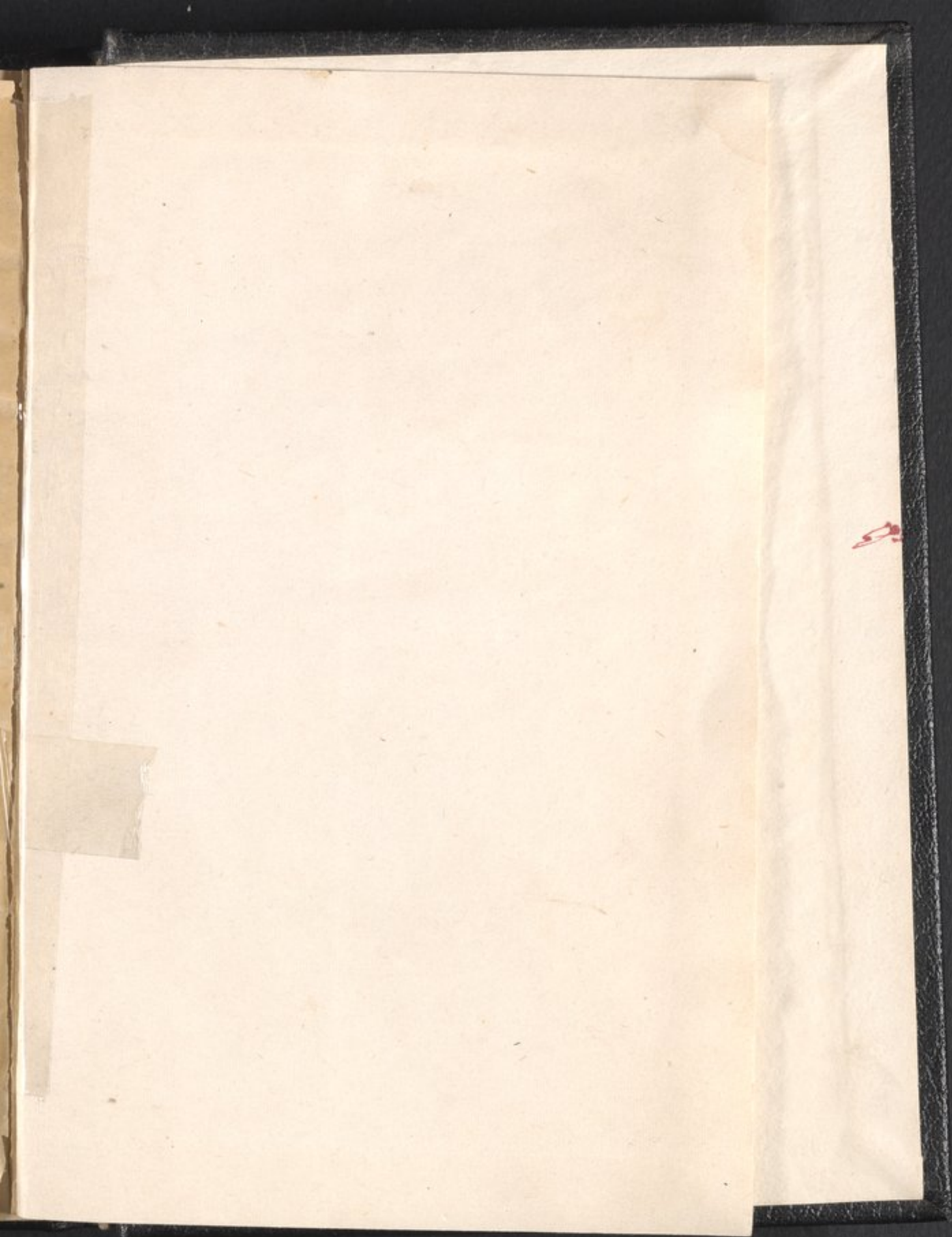
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01002 3400



05, B 11943



PJ

7840

A 397

1933

Jamāti, Ḥabīb.
al-Dahayā.

جَبَّتْ جَامَاتِي

تاريخ ما أهدى التاريخ

الحلقة الأولى

الضمائم

900
G/14 h

٩٠٠
٢٠٢٠ ت

الطبعة الأولى

بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وحقوق الطبع محفوظة لهم

بأشرطبعه : محمد أمين عمران

سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م

رقم ٤٨٦

17060

اهداء الكتاب

وقعت حوادث الاقصوصة الأولى من هذه
 الحلقة في أثناء الثورة المصرية سنة ١٩١٩
 فالى أرواح الشهداء، الذين حصدهم الرصاص
 ومنزقتهم الرماح، فضحوا بحياتهم في سبيل مصر،
 وماتوا لكي تحيا

اقدم كتاب « الضحايا »

ع . ع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله

والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله

33

مقدمة

الضحايا

تذكرة

للحفظ

تقدير

لشاعر القطرين ، وإمام الصناعتين

الأستاذ خليل مطران

« الضحايا » : أفاصيل نقلت عن متفرقات من الأنباء التاريخية ، فصلت تفصيلاً موجزاً وافياً بأداء الغرض المرمى إليه بكل منها ، ومهد لها بما تشاؤه سعة الاطلاع من الملابسات الزمانية والمكانية ، واستخلص في سياقها ماشاءت المغازي المقصودة بها من محاسن الفضائل أو مساوئ الرذائل .

جرى فيها مؤلفها الأديب الأملح « الأستاذ حبيب جاماتي » مجرى خاصاً ، توسّط فيه بين منحى العرب ومنحى الفرنجة . فأما العرب فقد آثروا بحكم طباعهم سوق كلّ نبأ على التجريد ، لا يعدون لباب الخبر ، ولا يتناولون من صفة الأشخاص سوى ما يعلق لزماً بذلك الباب . فعلموا ذلك باجادة إنشائية لا تضارع ، وإيجاز في السرد يكاد يكون غاية في الإيجاز ، ولم يقدروا للمطالع حاجة إلى الوقوف على غير الجوهر أو صبراً على تبسّط ، وإن كثرت فوائده ، يعوقه عن بلوغ القصد من أقرب سبيل .

وأما الفرنجة فقد صنعوا من الأقصوصة مصغرا للقصة ، فهم يصفون فيها بالكلمة العاجلة ما يهيب للقارى الزمان والمكان ، ويبينون بالعبارة السريعة مقومات كل شخص ومميزاته ، ويكدون الذهن فى تصوير النوازع النفسية ، والخلجات الوجدانية ، ويدخلون الحوار ، وإن لم ينفسح المدى إلا لأقله ، ليقذف فى روعك أنك بمشهد ومسمع ممن تقرأ سيرتهم .

غير أن صاحب هذا الكتاب قد اختار - وله فى اختياره حكمة - أن يجعل أقاصيصه ، فى الصفحات القلائل التى خصها بكل منها ملائمة للحالة النفسية الشائعة بين أبناء مصر ، بل بين أبناء الشرق العربى قاطبة ، فانتقى من الأنباء المشهودة أو المنقولة عن التاريخ ما فيه مظنة عبرة لهم ، وساق حديثه مساقا سهلا ، ساسا ، شائقا ، يهزّ المشاعر هزا عنيفا قد يصل إلى اغوارها ، ويغذى العقول بألوان من الطرائف لم تكن لولاها بقرية المنال منها . لا يريد بالخبر الذى يحكيه لك الخبر بذاته ، بل بكل ما يحيط به من صور وذكريات وأمور لها خطرها وموقعها المتمم للغرض المقصود منه . ولا يتوخى من اللغة التى يكتبها إلا أن تكون صافية قريبة إلى المتداول ، حتى لا يبعد على أحد تناول أدق المعانى الواردة فيها . وقد تفادى الاملال بجعله الأساليب متنوعة رشيقة ، واحتال كل حيلة دقيقة فى البيان لتشتغل أذهان متصفحها بالموضوع

عن الوسيلة التي اتخذها لأدائه، فيبلغ منها مبلغه غير منقوص من جانب القوة والروعة .

هذا وكأني بالكاتب ، الفاضل حين جعل لفظة « الضحايا » عنوانا لهذه المجموعة الأولى من الأقايص ، قد أشار بلطف إلى إزماعه التوفر على وضع الكثير منها ، وإلى التأليف بين المتجانسات في خواتيمها الفاجعة أو المتشاكلات في الأغراض العامة الأخرى التي تنتظم كل طائفة منها لتكون كل مجموعة منها حلقة من سلسلة واسعة . وقد أحسن بما نوى ، وإنا لنتمنى له التوفيق إلى إهداء طرف زاكية العداد من هذا النوع الأدبي الجديد إلى الناطقين بالضاد .

أما الأقايص التي تسنى لي تصفحها من هذه الحلقة ، فكل منها مجال جرى فيه ابتكار واضعها الأديب إلى أبعد الغايات المطلوبة في أمثالها .

خذ مثلا الأولى منها ، وهي التي وسمت باسم : « البطل المجهول » تجدد أحدثه صغيرة شائقة في إطار خلصت به القضية المصرية أروع تلخيص ، اشتمل على لباب القضية ، وعلى الأصول التي لا تمتري للحق فيها ، وعلى وثبة الأمة وبذلها النفوس والفئاس في سبيلها لا يختلف في ذلك الأصاغر عن الأكابر ، وعلى موجز ما نطقت به السنة الفصحاء وجرت به أقلام الباغاء ، من تظلم واستصراخ وبث وحث ، بما تأخذك تلقاء هزة الذكري لما تضمنته تلك الكلمات القلائل والعبارات

المقتضبة البعيدة الدلائل من صور الوقائع الكبيرة والحوادث الجلائل .
 فاظنن بما يكون في النفس موقع الحكاية التي لا تعمل فيها ولا تركيب
 ولا تزويق بياني ، وهي تحصل في صبي كاسب لوالديه المقعدين عن
 طلب الرزق ، يشهد في سنة ١٩١٩ بميدان الأوبرا حشداً وطنياً ضخماً
 مهتماً بشأن الزعماء الأربعة المبعدين عن بلادهم ظلماً بسبب دفاعهم عن
 استقلالها ، فينهره أحد الجنود ليبتعد عن مكان الاجتماع ، فيصيح في
 وجهه : « يحيا سعد ! » ويسقط صريعاً برصاصة الجندي .

إني لأعيد عليك هذه الحادثة في بضعة السطور الآتية وبني خجل
 من ضعف أدائها بالقياس إلى ما بها من قوة في الأصل تستدر العبرات
 بل تكاد تنزع القلوب من الصدور .

هذا ، ولا أراني في حاجة إلى ذكر أن الأقاصيص الأخرى كل في
 موضوعها ، لا تقل أثراً عن هذه في النفس ، مضافاً إلى براعة سياقها ،
 وحسن اختيار مرماها ، وصف خلاب ، تتخلله معلومات ومزكونات
 ومسـتخلصات من بطون السير ، تتركز فيها محتويات مجلدات حجة كما
 تتركز أزاهر حدائق كثيرة العدد في قطرات من العطر . ويجدر بي قبل
 أن أختم هذه الكلمة أن أذكر للمؤلف بالحمد الذي يوافقني عليه كل
 محب لهذه البلاد ، انه أدار حوادث معظم أقاصيصه على محور لم يختلف
 عنصره وإن اختلفت صورته ، وذلك المحور هو تمجيد مصر في أشخاص
 من شعبها . « فالبطل الجهول » و « الأنشودة المصرية » و « الأسكندر

والمصرية الحسناء « و « ابنة النيل » و « بأمر الحاكم بأمره »
و « انطونيو والعرفقة » الخ . كل أولئك يصدر عن مصر أو يمرّ بك في
بلد آخر شرقي أو غربي ، معيداً عليك ما ظهر ، أو كاشفاً لك ما استتر
من شئون عامة أو خاصة في تلك الأقطار ، والمرجع الذي يستقرّ عليه
فكرك من جولات القلم في تلك الشئون هو الحمية المصرية ، أو العفاف
المصرى ، أو الإباء المصرى ، أو الوفاء المصرى ، أو الذكاء المصرى ، في
واحد واحد من الأشخاص البارزين في تلك الأقاليم .

فالتصرف الجميل في التنقل بذهن المطالع بين كلّ عجيب وطريف
ورائع من الصفات والأبناء في مختلف من المواطن ، ليستخرج به أروع
ما يقتبسه العقل أو أبدع ما يصبو إليه القلب من فضائل ممثلة ، تعلّى شأن
مصر في نفوس أهليها ، أو في نفوس الأجانب عنها ، أليس مما يدعو
بحقّ إلى جعل الثناء على ذلك المؤلف المتفنن البارع والصديق الأريحي
السكريم مسكاً لختام هذه المقدمة ؟

خليل مطران

مصر في ٥ يناير سنة ١٩٣٣

صور أروع آلام الحياة ...

للاستاذ محمود رمزي نظم

صِغْتَ أَلْوَانَ «الضَّحَايَا» عَجَبًا	يَا صَدِيقَ الْقَارِئِينَ
كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ هَذَا الْأَدَبَا	يَقْرَأُ السَّخَّرَ الْمُبِينُ
صَفَحَاتُ هِيَ بُسْتَانُ الْبَيَانِ	وَأَزَاهِيرُ الْأَدَبِ
أَلْفَ الْكَاتِبِ مِنْ خُضْرِ الْجَنَانِ	طَاقَةُ الزَّهْرِ الْحَزِينِ
شَاعِرُهُ وَجَدَانُهُ أَرْسَلَهَا	لِلْقُلُوبِ الشَّاعِرَةِ
وَرِسَالَاتُ الْأَسَى يَحْمِلُهَا	قَلْبُهُ الْحَيُّ الْأَمِينُ
أَيُّهَا الْبَاكِي لَقَدْ أَبْكَيْتَنَا	حِينَ رَجَعْتَ الصَّدَى
أَيُّهَا الْقَصَاصُ قَدْ أَشْجَيْتَنَا	فَبَكَيْنَا مُرَغَمِينَ
قَلَمُ يَا صَاحُ أَمْ قِيَارَةُ	أَسْمَعْتَنَا لَحْنَهَا
كُلُّ حَرْفٍ مَا زَجَّتْهُ دَمْعَةٌ	أَوْ حَنِينٌ أَوْ أَيْنِ

صَوْرُهُ أَرْوَعُ آلَامِ الْحَيَاةِ
 أَغْفَلَتْهَا كُلُّ أَفْوَاهِ الرُّوَاهِ
 كَمْ فَتَى رَاحَ فِدَاءَ الْوَطَنِ
 قَامَ حَيًّا مِنْ ثَنَائِهَا الْكَفَنِ
 وَفَتَى مِنْ نَظَرَةٍ قَاتِلَةٍ
 رَدَّهُ فِي قِصَّةٍ بَارِعَةٍ
 وَشَهِيدُ الْفَنِّ مَنْ يَرِنِي لَهُ
 رَبُّ شَخْصٍ عَصْرُهُ أَهْمَلُهُ
 دِقَّةُ الْإِحْسَاسِ أَوْحَتْ لِحَبِيبِ
 فَهِيَ مِنْ تَصْوِيرِ فَنَّانٍ أَرِيبِ
 مِنْ أَفَانِينَ «حَبِيبِ»
 مِنْ صَرِيحِ أَوْطَعِينَ
 وَانْتَسَى تَارِيخُهُ
 فِي ثِيَابِ الْخَالِدِينَ
 جَادَ بِالرُّوحِ وَرَاحَ
 عِبْرَةً لِلْعَاشِقِينَ
 غَيْرُ أَرْبَابِ الْفُنُونِ
 وَهُوَ النَّبْعُ الْمَعِينُ
 كُلُّ تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتِ
 فَاقْرَءْ وَهَذَا مُعْجِبِينَ

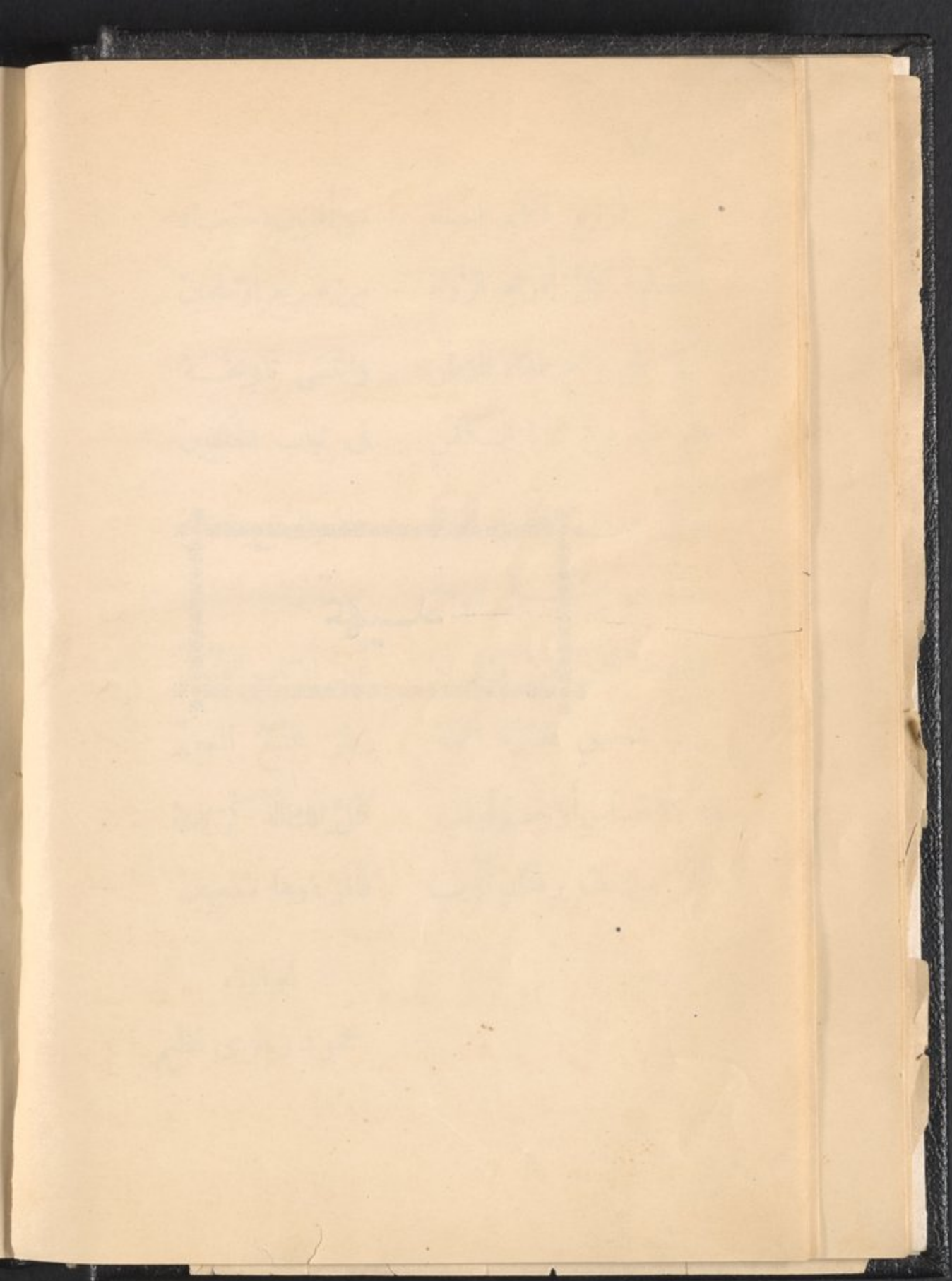
مصر

أبو الوفاء

محمود رمزي نظم



تفید



فن القصص

والقصة التاريخية

كان الإنسان منذ بدء السكون ، ولا يزال ، وسوف يظلّ إلى ما شاء الله ، بحب الأفاصيص ، ويميل إلى سماعها ، لافرق في ذلك بين الطفل في كنف والديه ، والطالب في مدرسته ، والرجل وسط أعماله وأشغاله . فلا غرابة في أن يكون فنّ القصص أوّل فنّ نبغ فيه الانسان قبل أن يخترع الكتابة ، وأوّل نوع من أنواع الأدب مارسه .

ولست أقصد بهذا التمهيد لمجموعة « الضحايا » أن أكتب تاريخ القصة عند الشرقيين والغربيين ، ولكنني أذكر مجمل ذلك التاريخ ، لكي أتحدث بعد ذلك إلى القارئ عن الأفاصيص التي نشرتها بهذا العنوان العام : « تاريخ ما أهمله التاريخ » والتي أقدم له اليوم أوّل

حلقة من حلقاتها ، وعن الحقيقة التاريخية ومبلغها في هذه الأقاليم .



إن المصريين القدماء لم يهملوا الفن القصصى ، وقد تركوا لنا في أوراق البردى كثيراً من الأقاليم التى تتغلب فيها الناحية الغرامية المزوجة بالتدين الشديد الذى كان يمتاز به المصريون قديماً ، وقد تناول كثيرون من علماء انجلترا وفرنسا وألمانيا تلك الآثار التى تركها المصريون في هياكل الآلهة ومقابر الملوك ، فنقلوها إلى مختلف لغاتهم ، واستعانوا بها في دروسهم ومباحثهم ، لمعرفة ما كانوا يجهلون من دقائق الحياة المصرية في تلك العصور الغارقة في القدم .

ومارس الأقدمون فن القصص ، فترك لنا اليونانيون والرومانيون في الغرب ، والصينيون واليابانيون والهنديون في الشرق ، نماذج بديعة من الفن القصصى . ولم يهمل العرب هذا الفن ، بل انهم قطعوا به شوطاً بعيداً ، وأقاليم « الأغاني » مشهورة رائعة . أما « ألف ليلة وليلة » فتعد آية من آيات هذا الفن ، وقد أعجب بها الغربيون فنقلوها إلى معظم لغاتهم .

كانت موضوعات الأقاليم من قبل خيالية ، ثم وجد واضعوها في حوادث الحروب والغزوات ينبوعاً فياضاً ، فجعلوا يصوغون

تلك الحوادث في قالب جذاب ، ثم راخوا يستمدون من حياة مواطنهم اليومية موضوعات تجمع بين الحقيقة والخيال ، إلى أن بلغ ذلك الفن ، فن القصص ، أوج الكمال في هذا العصر ، حيث أصبح بين أنواع الأدب أكثرها ذيوغاً ، وأغزرها مادة ، وأحبها إلى الكتاب والقراء على السواء .



ولا شك في أن فرنسا كانت في القرون الأخيرة ولا تزال إلى الآن أسبق الأمم في هذا المضمار . وإذا تجاوزنا « رابليه » ومعاصريه ، فأننا نجد في فرنسارها طائفة من الأدباء الأعلام نبغوا في وضع الأقاصيص وطرقوا جميع أنواعها . فهناك فولتير ، وشارل نوديه ، وبالزك ، واسكندر دوماس ، وفلوير ، والفونس دوديه ، وأميل زولا ، وهويسمان ، وفرانسوا كوبيه ، واناتول فرانس ، وموسيه ، وموباسان وغيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم . وإذا كان أدباء انجلترا وروسيا وألمانيا وغيرها قد سبقوا زملاءهم الفرنسيين في بعض أنواع الأدب الأخرى ، ففضل التقدم في الفن القصصي يرجع إلى الفرنسيين وحدهم بلا نزاع ، فهم الذين أوجدوا جميع المذاهب القصصية التي أقرها النقد الأدبي .

وتاريخ الأدب الإيطالي حافل أيضاً بالطرائف من هذا القبيل .

ويكنى إيطاليا فخراً أنها أنجبت بوكاتشي ، وساكي ، وبانديلو وغيرهم
من واضعي الأقاصيص الخالدة .

ونبع في ألمانيا هانس ساخس ، ووالدس ، وهاجدورث ،
ونيكولاى ، وشوبارت ، وعلى الخصوص هوفمان ، الذى ترجمت
أقاصيصه إلى جميع اللغات الحية .

ولإنجلترا أن تفاخر من جهة بشوسر ، ودرayدن ، وبريور ،
وديكنس . وقد طافت أقاصيص ديكنس العالم بأسره ، ونقلت إلى
كثير من اللغات .

وعالج كثيرون من أدباء اسبانيا فن القصص ، ونجحوا فيه إلى
حد بعيد ، ومعظم أولئك الأدباء الاسبانيين نقلوا إلى لغتهم أقاصيص
ألف ليلة وليلة ونوادى العرب كما جاءت فى كتاب الأغاني ، وحاولوا أن
يقلدوها ، ويضعوا مثلها باللغة الاسبانية ، مستمدين موضوعاتهم من
حوادث الأندلس فى عهد الحكم العربى .

ووضع الأميركى واشنطن ارفنج بضع أقاصيص سماها « قصص
الجرء » تقع معظم حوادثها فى قصر الجرء بقرناطة .

ويحتل أندرسن الدانماركى مكاناً خاصاً بين واضعي الأقاصيص فى
بلاد الغرب .



أهمل أدباء العربية فنّ القصص ، ولا يزال إهمالهم هذا إلى الآن مما يدعو إلى الأسف . فكتاب العربية الذين يمارسون هذا النوع من أنواع الأدب قليلون ، ومعظمهم يعمد إلى ترجمة الأقاويص الافرنجية ترجمة حرفية ، أو يحوّرّها بصورة يعتقد معها أن تلك الأقاويص أصبحت شرقية أو عربية ، مادامت الأسماء الغربية فيها قد تبدّلت وتغيرت !

ولكن القليل الذين وقفوا أقلامهم على خدمة الفنّ القصصى والنهوض به والدعوة إليه ، يعملون بنشاط واجتهاد يحمّدون عليهما ، ولا بدّ أن يكمل مجهودهم بالنجاح ، عاجلا أو آجلا ، فيأخذ هذا الفنّ مكانه بين أنواع الأدب الأخرى ، كما هي الحال في أوروبا .



حدث في العام الماضي أن عاجلت في مجلة « كلّ شيء » الغراء بعض الموضوعات الأدبية ، فكتبت عن التأليف وحماية حقوق المؤلفين والظروف الغربية التي تكتنف المؤلف وطبع نقشات قلّمه في مصر . فليسمح لي القارئ أن أدوّن في هذا « التمهيد » ملخص رأيي في ذلك كله ، وأن أضيف إليه كلمة موجهة إلى أصحاب : —

شركة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الذين يتولون الآن طبع هذه الأقاويص ونشرها :

منذ ست سنوات طلب مني أحد أصحاب الصحف اليومية ترجمة رواية فرنسية مشهورة إلى اللغة العربية لنشرها تباعاً في جريدته ، فليت الطلب ، وقلت إلى العربية تلك الرواية التي كان مؤلفها الفرنسي قد طبع منها مئات الآلاف من النسخ في فرنسا .

وكان في نيتي أن أطبع روايتي في كتاب بعد الانتهاء من نشرها على صفحات الجريدة ، ولكن حدث بعد الانتهاء من ذلك ، أن كنت جالساً في إحدى المقاهي فمرّ أمامي بائع كتب ويده رواية يدل عنوانها على أنها هي هي الرواية المترجمة المشار إليها !

أخذت نسخة من الرواية ، وجعلت أقلب صفحاتها ، وأقرأ بعضها ، فإذا بي أمام ترجمتي الحرفية ، التي سطا عليها أحد أصحاب المطابع ، وجعل يجمعها كل يوم بعد صدور الجريدة ، حتى إذا ما انتهت الرواية كان صاحبنا قد طبعها « بلا إذن ولا دستور » وألقاها للبيع في السوق ، بعد أن شطب اسم المترجم الحقيقي ووضع محله اسم رجل آخر !

وحاولت أمام تلك اللصوصية الغريبة أن أدافع عن نفسي وأسترد حق ، لكنني فشلت ، واضطرت إلى العدول عن نيتي فلم أطبع كتابي

الذى لا يزال إلى الآن متداولاً في السوق باسم رجل آخر ، لم يكتب في الرواية سطرًا واحدًا . ! .

هذا مثل من الأمثلة العديدة التي تقع كل يوم ، وحادث من الحوادث التي أصبحت عادية سارية . فالمؤلف أو المترجم لا يستطيع حماية نفسه وحماية مؤلفاته من سطو اللصوص أمثال صاحب المطبعة الذي أشرت إليه .

وقد رفعت أمام المحاكم الأهلية قضايا مدنية طالب فيها رافعوها بما يسمونه حقوق التأليف وحمايته ، فخسروا قضاياهم ، وكانت النتيجة أن تمادى بعض أصحاب المطابع في سطوهم على حقوق الغير .

وما دام الأديب يعلم أن عمله غير مصون وأنه لا يتمتع بحماية القانون والنظام أسوة بغيره من « أصحاب الاملاك » إذ أن الكتاب يجب أن يكون ملكاً لصاحبه ، أقول ما دام هذا هو حال لأديب ، فإن نشاطه لابد أن يظل عرضة لكبوات تتلوها كبوات . . .



وفي هذه المناسبة أذكر أن في أوروبا ، وعلى الخصوص في فرنسا ، جمعيات تسهر على حماية حقوق المؤلفين والمترجمين من عبث العابثين ، فضلاً عن أن القوانين القائمة هناك تضمن لهم تلك الحماية ، وتكفل لهم حقوقهم .

ففي فرنسا مثلاً جمعية اسمها « سوسيتيه دي جان دي لير » أى
 جمعية حملة الأقلام ، ينضوى تحت لوائها كتاب فرنسا على اختلاف
 ألوانهم ونزعاتهم ، وهى تراقب عن كثب بواسطة مندوبيها ووكلائها
 ومكاتبها فى جميع أنحاء العالم ، كل ما ينشر فى الجرائد والمجلات
 وما يصدر عن المطابع والمكاتب ، وليس على المؤلف أو المترجم أن
 يهتم بالسهر على حقوقه ، فان الجمعية تفعل ذلك بالنيابة عنه ، وتحصل له
 ما يستحقه من رسوم وأتعاب ممن ينقلون أو يترجمون شيئاً من نثرات
 قلمه . ولهذا الجمعية وغيرها من الجمعيات المشابهة لها وكلاء فى مصر ،
 بحيث أن حقوق المؤلفين الفرنسيين تظل محترمة محفوظة فى خارج
 وطنهم كما هى محترمة محفوظة داخل فرنسا .

وقد نظرت المحاكم المختلطة بمصر فى قضايا رفعها وكلاء تلك الجمعيات
 على بعض الكتاب المصريين الذين ترجموا إلى العربية مؤلفات فرنسية
 دون أن يحصلوا على تصريح بذلك من أصحاب تلك المؤلفات ، وحكمت
 لهم بتعويض مالى .



ووقعت لى حادثة أخرى عوّضت على بعض الضرر الذى لحقنى
 بسبب الحادثة الأولى :

كتبت مرة قصة مصرية اسمها « رمال مصر » باللغة الفرنسية ،
Sables d'Egypte ، وبعثت بها إلى مجلة فرنسية أدبية تصدر في
باريس ، فنشرتها ، وأرسلت إلى مبلغاً من المال ، وطلبت أن
أكتب لها غيرها ففعلت .

ومرّت سنتان على نشر القصة ، وإذا بي ذات يوم ألقى كتاباً من
إدارة المجلة تقول لي فيه ان مجلة أخرى نقلت عنها قصة « رمال مصر »
ودفعت لها « حقوق التأليف » وأرسلت إلى إدارة المجلة مع كتابها
تحويلاً بالمبلغ ! ولو لم تفعل ذلك لما طالبتها بشيء لأنني كنت أجهل
تماماً أن مجلة فرنسية أخرى نقلت تلك القصة وأن لي عليها حقوقاً في
استطاعتي أن أطالب بها !

ومرّت شهور أخرى وإذا برسالة ثانية من إدارة المجلة تنبئني بأن
إحدى شركات السينما ترغب في مفاوضات لأجل الحصول على حق
إخراج تلك القصة المصرية في شريط سينمائي وتطلب معرفة الشروط
التي اشترطها لذلك .

فوضت الإدارة نفسها بأن تنوب عني في مخاطبة الشركة ، وتمت
المخاطبة بين الطرفين ، وأبلغتني إدارة المجلة نتيجة الاتفاق وشروطه ،
مشفوعة أيضاً بمبلغ من المال دفعته شركة السينما فوراً !

هذا مثال مما يصنعه الأوروبيون مع المؤلفين ، أرويه هنا لمقارنته

بالحادث الذى سقته إلى القراء عن السرقات الأدبية فى مصر ، ولكى يظهر لهم الفارق بين احترام حقوق التأليف فى مصر واحترامها فى بلاد الغرب .

فهناك ، المؤلف يربح ، والناشر يربح ، وكل من يستفيد من نقشات قلم المؤلف يربح ويفيد سواء .



وأقول بهذه المناسبة ان جميع الروايات الأفرنجية التى تمثلها الأجواق الأوربية فى مصر فى فصل الشتاء ، على مسرح الأوبرا أو غيره ، يدفع عليها رسوم يقبضها وكيل جماعة المؤلفين فى مصر ، ويبيع بها إلى أصحاب الشأن فى بلادهم . فكأن المؤلف هناك مطمئن على تحصيل حقوقه دون أن يحرك ساكناً أو يحمل نفسه مشقة البحث والتحري ، لأن الهيئة المنظمة التى ينتمى إليها تسهر على حقوقه ولا تترك لأحد مجالاً للسطو عليها ، ليس فقط فى الداخل بل أيضاً فى الخارج .

أما عندنا ، فأى مؤلف مسرحى فى استطاعته أن يحمى رواية وضعها من سطو الأفراد والجماعات « الفنية ؟ » بل أى مسرح يستطيع أن يحمى روايته من ذلك السطو ، وهو صاحبها ودافع ثمنها إلى المؤلف ؟ يموت المؤلف فى أوربا فتبقى رواياته ملكاً لورثته ، ينتفعون بريعتها مدة معينة ، تتراوح بين الثلاثين والخمسين سنة بعد وفاته . أما هنا ،

فان روايات المؤلف تصبح مشاعاً بين الناس وملكاً للجميع ، وهو
مازال حياً يسعى إلى رزقه والرزق يهرب منه !

ومن أجل ذلك ، نرى المؤلفين هناك ممثلين نشاطاً وحماساً ، ونراهم
هنا في غمرة من اليأس والوهن !



ولا بدّ لي من التطرق إلى الحديث عن أصحاب المكاتب والمطابع ،
فان البعض منهم - ويا للأسف ! - يقفون حجر عثرة في سبيل النهضة
الأدبية ونشر الثقافة وإبراز المؤلفات إلى عالم الوجود .

إنّ الباحث عن الطرق والأساليب المتبعة في طبع الكتب
ونشرها في بلادنا ، يهوله ما يصل إلى علمه من أمرها ! وأخشى لو
تبسّطت في هذا الموضوع أن أسئء إلى هذا أو ذاك من أصحاب
المكاتب والمطابع ، وليس الغرض من تدوين هذه الآراء الاساءة
إلى أحد .

ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أعمال البعض ممن يتولون طبع الكتب
ونشرها ، وهي أعمال أقلّ ما يقال فيها أنها لا تتفق مع العرف والضمير
والعدل والانصاف ، وتالحق بالناشرين الذين يغارون على سمعة مهنتهم
الشريفة ، ضرراً أدبياً كبيراً - قد يكون أيضاً في بعض الأحيان
مادياً . . .

ولو بحثنا بين جماعة الناشرين في مصر، لوجدنا لذلك الرجل الذي حدثت القارىء عنه وعن سرقة، زملاء يمشون معه يداً بيد، وجنباً إلى جنب !

وأختم هذا الحديث بكلمة شكر وثناء أوجهها إلى الأفاضل أصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الذين أناحوا لي فرصة جمع هذه الأقاويص وتقديمها للقارىء في كتاب، والذين لقيت فيهم الاتقان في العمل، والنزاهة في المعاملة، والدقة في المواعيد، واحترام الحقوق والواجبات على السواء، والحرص التام على كرامة المهنة وسمعتها .



بقي على أن أقول كلمة في « القصة التاريخية »، وفي هذه المجموعة التي أقدمها اليوم للقارىء والتي عزمت بإذن الله على أن أتبعها بغيرها . إن كتب التاريخ تقصّ علينا حياة الأمم والعشائر والجماعات . أما الرواية والقصة ، إذا كان موضوعهما مستمدّاً من حوادث التاريخ ، فإنهما تقصان علينا حياة الأفراد وسط تلك الجماعات والعشائر والأمم . وهذا ما توخيته من وضع الأقاويص التي جعلت لها هذا العنوان العام : « تاريخ ما أهمله التاريخ » .

لقد كتب كثيرون من أدباء العربية « روايات تاريخية » فتحوا بها في عالم الأدب فتحاً جديداً . وأذكر بينهم في هذه المناسبة المرحوم

جورجي زيدان ، منشئ « الهلال » ، والزميل الصديق معروف الأرناؤوط ، صاحب جريدة « فتى العرب » الدمشقية ، وواضع رواية « سيد قريش » الطريفة .

لكن « القصة التاريخية » كانت مهمة في الأدب العربي ، خلافاً « للرواية التاريخية » التي عاجلها بعض الكتاب كما قلت . وقد حاولت أن أسد الفراغ ، وأعد من يمن طالعي أن أوفق في محاولتي هذه بعض التوفيق .



في سنة ١٩٢٧ نشرت في مجلة « المصور » البيان الآتي :

« تجمع لدى عدد كبير من الرسائل ، يسألني فيها القراء أسئلة تنحصر جميعها في هذه الكلمات :

(هل القصص التي تنشر في « المصور » بتوقيعي وبعنوان : « تاريخ ما أهمله التاريخ » حقيقية أم خيالية ؟)

« ويسألني البعض من أين أستمّد التفاصيل ، وعلى أية كتب من كتب التاريخ أعتد في سرد الحوادث .

« وعلى هذا كله أجيب بصراحة واختصار :

« الحوادث التي أدونها بهذا العنوان : « تاريخ ما أهمله التاريخ » حقيقية واقعية في جوهرها ، خيالية في تفاصيلها .

« فقد رأيت أن في التاريخ عامة - وفي تاريخ البلدان الشرقية خاصة - كثيراً من الحوادث التي يمرّ بها القارئ دون أن يعلق عليها أهمية ما ، أو يلتفت إلى تأثيرها وأثرها في التاريخ وفي الأخلاق ، ففكرت في أن أتناول تلك الحوادث ، الصغيرة في حدّ ذاتها ، الكبيرة بمغزها ، فأدوّنّها في قالب قصصى ، وأحيطها بهالة من الخيال تجعل سردها مستحباً للقراء ، ومطالعها أقلّ جفاء من مطالعة كتب التاريخ المجردة .

« ولست مبتكر هذا النوع من الكتابة ، فقد سبقنى إليه كبار الكتاب من شرقيين وغربيين ، والروايات التاريخية كثيرة في الشرق والغرب . لكننى اخترت الاقاصيص التاريخية الصغيرة ، دون الروايات الطويلة ، التى يتطلب وضعها مجلداً أو أكثر ، فجعلت أنتقى من كتب التاريخ الحوادث التى يسهل وضعها فى قالب قصصى يقع فى بضع صفحات ، فأقدّمها إلى القراء بعد أن أتخيل لها التفاصيل التى أراها قريبة للحقيقة أو مطابقة لها .

« وقد سألتى أناس عن أسماء الكتب التى استقى منها موضوعات قصصى التاريخية ، ولكننى لاأستطيع الردّ على هذا السؤال . فكتب التاريخ كثيرة ، وإننى أستمع بها جميعها لأن فى كلّ منها عشرات من الحوادث والوقائع والآثار والذكرىات ، التى توحى للأديب شتى الموضوعات الصالحة لبناء قصة تاريخية .

«وهناك المتاحف ودور الآثار وما فيها . وهناك أيضاً المكاتب العامة والخاصة وما تحويه من مخطوطات ومحفوظات . وكلها مصادر يرجع إليها الكاتب إذا ما أراد أن يحدث قراءه عن وقائع التاريخ المجهولة أو الغامضة ، فضلاً عن ذاكرة الشيوخ المعمرين الذين يقصون على الجيل الحاضر حوادث الجيل الغابر .»



فالذي أقدمه إذن للقارئ اليوم هو الحلقة الأولى من سلسلة :
« تاريخ ما أهمله التاريخ »

وعنوان هذه الحلقة : « الضحايا »

وقد يسأل القارئ لماذا اخترت لها هذا العنوان ؟

فجوابي : ان جميع أبطال هذه القصة راحوا ضحايا . . .

ضحايا الظلم والاستبداد . . .

ضحايا الغدر والخيانة . . .

ضحايا الحقد والانتقام . . .

ضحايا الطمع والجشع . . .

ضحايا الغرور والجنون . . .

ضحايا الثورات والحروب . . .

ضحايا العادات والتقاليد . . .

ضحايا السياسة والخداع . . .

وأخيراً . . .

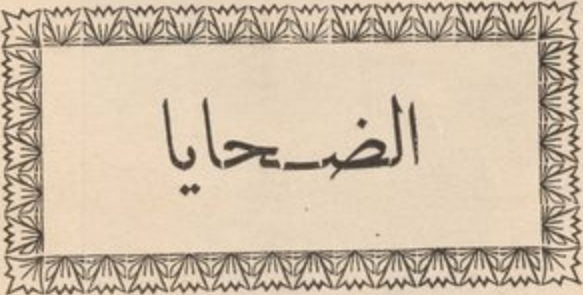
نحايا الحبّ والهيام . . .

فعسى القراء أن يجدوا في هذه المجموعة الأولى تسليّة وفائدة ،
وعسى أسلوب هذه الأقاويص التاريخية أن يجد حظوة لديهم ، تشجّعني
على المضيّ في خدمة الأدب من هذا السبيل .

حبيب جاماتي

مصر . يناير سنة ١٩٣٣ — رمضان سنة ١٣٥١ .





الضحايا

« وأصيب برعى في ذلك اليوم برصاصة استقرت في غده الأيمن »



البطل المجهول

في ميدان التضحية متسع للجميع
سعد زغول

١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ...

دوى في البلاد صوت سعد مصر ، فاهتزت له مصر من أقصاها
إلى أقصاها ، وسارت نبراته في جسم الأمة سير الكهرباء ، فوقف
أربعة عشر مليوناً من المصريين ، ماسكين أنفاسهم ، يتطلعون إلى
الزعيم الجليل وصحبه ، وقد قصدوا إلى « دار الحماية » يهربون لعميدها
عن أمانى مصر القومية ، ويطلبون القيام بالعهود المقطوعة ، وبالجلاء
المرغوب فيه .

وكان ما كان من أخذ وردّ ، وصدق يقابله رياء ، وصراحة تقابلها
مراوغة ، وودّ يقابله جفاء .

امتنع الأسد البريطاني ، عن إعادة « الأمانة » إلى أصحابها ،
وكانت وديعة في عرينه !

٨ مارس سنة ١٩١٩ . . .

حشدت بريطانيا العظمى المنتصرة جحافلها وأساطيلها ، وجردت
سلاحها في وجه من جاءها سافر الضمير مسالماً ، شاهراً بيده الحقّ
الناصح سلاحاً .

عدّت المطالبة بالحياة الحرّة للوطن والعشيرة جرماً شنيعاً وعصياناً
يعاقب عليه ، فأصدر القوىّ أمره بنفى الضعيف الأعزل ، وإبعاده عن
وطنه وعشيرته .

أعمى الصلف والغرور بصر القوم وبصيرتهم ، فغاب عنهم أن وراء
الأفراد الأربعة ^(١) الذين أبعدوا بلاداً بأسرها تشدّ أزرهم ، وتشعر
شعورهم ، وأن الاساءة إلى سعد ورفاقه إنما هي إساءة إلى وادى النيل
من أدناه إلى أقصاه .

طير الانجليز يسدهم الشرارة التي أصابت المراحل فأحدثت فيها

(١) سعد زغلول باشا ، ومحمد محمود باشا ، وإسماعيل صدقي باشا ، وحيد
الباسل باشا .

ذلك الانفجار الهائل ، فثار الشعب ثورته ، وصعدت صدور أبنائه
هتافاً واحداً وأمنية واحدة : « يحيا سعد ! الاستقلال التام ! »



في التاريخ عظات وعبر ، لـسكن ابن آدم لا يتعظ ولا يعتبر !
تغلب داود ، راعى الأغنام الاسرائيلي ، على جالوت الجبار
الفلسطيني ، ولم يكن بيد داود سوى الحجر والمقلع .

وتغلب اليونان على الفرس ، والبلغاريون على الأتراك ،
والأمريكيون على الانجليز ، والهولنديون على الاسبان . . .

في كل عصر من العصور الخالية ، ضرب الضعيف القوى ضربة
ألقته صريعاً ، وحملته على الاعتراف مرغماً بما أبى الاعتراف به مخيراً .
لـسكن الانسان يسدل بسرعة على الماضي ستار النسيان ، فلا تؤثر
فيه العظة ولا تنفع الذكرى .

والتاريخ لا يزال يعيد نفسه ، والأرض تدور دوراتها ، والجوارح
تنقض على الطيور المهيضة الجناح ، والسباع تطارد الغزلان في الغابات
والصحارى ، والاسان يهضم حق أخيه الانسان !



« في ميدان التضحية متسع للجميع ! »

ما أصدق كلمات سعد زغلول هذه ، وما أوسع معناها !

كان سعد في ميدان التضحية سخياً ، وجاد سعد ورفاق سعد في
الجهاد بأموالهم وراحتهم وحرّيتهم وهنائهم ، في سبيل القضية القومية
المشتركة ، فكانوا للعالم قدوة ومثالا .

ولكن ما أ كثر الشهداء الصغار بجانب الشهداء الكبار ، وما
أ كثر الضحايا المجهولة بجانب الضحايا المعروفة المشهورة !

كم من وضع لم يكن يملك غير نفسه فجاد بها في تلك الأيام العصيبة
السوداء ، عملاً بمبادئ سعد ، وإجابة لنداء البلاد ، وترضية للضمير
الحى ، والنفس الأبية .



المغفور له سعد زغلول باشا

لا أزال أذكر حادثاً وقع أمامي ، في مارس سنة ١٩١٩ ، فلأني
دروعة ، إذ أننى لمست فيه قلب الصغار النابض ، وشاهدت روحهم

المجردة ، وأيقنت أن في صدور أبناء الشعب جذوة شعور كامنة ، أذكاهها
الزعيم المرسل بسحر بيانه ، وقوة إرادته ، وثبات إيمانه ، واتقاد وطنيته !
كان بجيئني في مكتبي ، في تلك السنة ، غلام في العاشرة من عمره
يدعى « برعى » ، وكان ذلك الغلام بائع أوراق يانصيب ، « يسرح »
بها من الصباح إلى المساء ، ويعرضها على « زبائنه » مبتسماً ناظراً إلى
كلّ منهم نظرة ملؤها الأمل والرجاء ، مدعماً حركاته بقول لا يتغير
ولا يتبدّل :

— الورقة الباقية يابك . . . آخر ورقة يانصيب . . . هي الكسبانة
يابك . . . خدها وحياة النبي ! .

وكان الناس يبتاعون منه أوراقه لاطمئناً في الربح ولا رغبة في « رؤية
البخت » بل إجابة لرجاء الغلام وعملاً بدافع الاحسان .
كانت أمه « غسالة » تطوف المنازل كلّ يوم ، ولا تذوق الراحة
إلا في يوم الجمعة من كلّ أسبوع . لكنها أصيبت بمرض أودى بنظرها ،
فاضطرت إلى ملازمة مسكنها .

وكان أبوه بناء . لكنه سقط ذات يوم من علوّ شاهق ، فأصيب
بكسر في رجله ، وجرح في كتفه ، فأقعده ذلك عن العمل ، وصار مع
زوجته عالة على الصبي الصغير المسكين .

أرادت الأم أن تخرج للتسوّل في الشوارع والطرقات ، لكن
الابن الطيب القلب حال دون رغبتها ، وتعهّد بالقيام بمعيشة أبويه .

وبدا منذ ذلك الحين يبيع أوراق اليانصيب، ويعود في كل مساء إلى
كوخه بجوار القلعة ، فيضع بين يدي والده ما اكتسبه من دريهمات .
كننا نعلم ذلك جميعنا ، وكننا نبتاع أوراق اليانصيب من برعى
الصغير ، مرتاحين إلى عملنا ، واثقين أننا نقوم باحسان مزدوج .



لكن شاءت الأقدار إلا أن تحرم الأمّ الضريرة والأب المقعد من
سندهما ومعينهما الوحيد . . .

ففي صبيحة يوم كالح من أيام مارس سنة ١٩١٩ ، هبت على
القاهرة رياح هوجاء شديدة الحرارة ، وكأنى بالطبيعة ، وقد ثارت في
ذلك اليوم ثورتها ، تقوم لمشاركة شبيهة مصر في احتجاجها على نفى الزعيم
الكبير ، وخرق المواثيق ، ونكران العهود .

مشت الجماهير في مظاهرة رهيبة ، ماجت بها الميادين والشوارع ،
وشقّ الهتاف بحياة سعد واستقلال مصر كبدا الفضاء . . .

وكننت ترى الكبير والصغير ، والغنى والفقير ، وصاحب الجاه
والصعلوك الحقير ، يسرون جنباً إلى جنب ، وقد اختلجت صدورهم
بشعور واحد وعاطفة واحدة !

ومشى برعى أيضاً مع من مشى في تلك المظاهرة .
بلغ القوم في سيرهم ميدان الأوبرا ، فبدأ ذلك الميدان كأنه بحر
زاخر متلاطم العجاج .

المفجور له سعد زغلول باشا ، وعن يساره مصطفى النحاس باشا



وبرز لهم الجند الانجليزى شاكى السلاح فى منافذ الميدان ، وبعد
 التهديد والوعيد ، صوّب أولئك الأبطال الاشاوس فوهات بنادقهم إلى
 الصدور ، وأطلقوا عليها رصاصهم الحاصد . . .

فسقط في الطريق من سقط من طلاب الحق . . . وفرقت
السيارات المدرعة ، والرشاشات السريعة ، جماهير المتظاهرين .
وأصيب برعى في ذلك اليوم برصاصة استقرت في فخذه الأيمن . . .



نقلناه إلى مكتبنا ، وناديننا من ضمه له جرحه ، وكان الغلام يئن
من شدة الألم .

وبينما نحن كذلك ، دخلت علينا سيدة كانت قد سمعت بوقوع
الحادث في الشارع فجاءت تستطلع الخبر ، وجعلت تساعدنا وتواسي الجريح
قالت له : « لا تبك يا بني . ألا تعلم أنك تتألم في سبيل مصر ؟ »
فأجابها بصوت ضعيف : « أعلم ذلك » .

فسألته : « لماذا اقتربت من الجند وقد رأيتهم يهددون الناس
بينادقهم ؟ »

فأجاب برعى : « رأيت أحدهم مقبلا علىّ فرفعت صوتي صائحا
في وجهه : يحيا سعد ! . . فأطلق علىّ الرصاص . . . أتظنين أنني
سأموت يا سيدتي ؟ »

فهيّطت الدموع من عيني السيدة دفعة واحدة ، وانكبت على
الغلام تقبله وتشجعه ، فأيقنت أن في الاحن والملمات جميع نساء مصر
لفتيان مصر أخوات وأمّهات !



سعد زغلول باشا في ملابسه الرسمية

ولم تشأ تلك السيدة أن تدع الصبي الجريح ينقل وحده إلى المستشفى ،
بل رافقته إليه . . .

ولم أسمع شيئاً عنها منذ ذلك الحين . . .
ولم أرقط الغلام بائع أوراق اليانصيب منذ ذلك الصباح المشؤوم . . .
لم أره ، ولكنني علمت أنه قضى نحبه في مستشفى قصر العيني ،
متأثراً بجراحه .

فأبلغت الخبر إلى « زبائن » برعى ، وتبرّع كل منهم « بما فيه
النصيب » لإعانة أم بائع اليانصيب وأبيه !



هكذا كانت الصبيان تشارك الكبار في الذداء باستقلال مصر
وبحياة سعدا .

وهكذا كان أولئك الشهداء المجهولون يسقطون في ميدان الجهاد ،
فيضحون بأنفسهم على هيكل الوطنية ، ولا يدون أحد في سجل التاريخ
تضحياتهم

فلنستمطر على أرواحهم الذكية غيث الرحمة والرضوان ، فانهم من
بناء الاستقلال بمثابة الأساس !



الانشودة المصرية

أوقفت الأعمال في بحيرة نيمى بإيطاليا وعدت
الحكومة الإيطالية عن محاولة استخراج
الكنوز المخبأة في المركبين اللذين أغرقهما
الامبراطور كاليجولا في تلك البحيرة .

(الجرائد . في شتاء سنة ١٩٣١)

جلس قيصر كابوس أوغسطس جرمانيكوس الملقب بكاليجولا
(Caligula) على عرش روما في السنة السابعة والثلاثين للميلاد ، وظل
محتفظا بالصولجان إلى السنة الحادية والأربعين ، التي اغتاله فيها الروماني
الأصيل كيرياس ، فأقعد الأمبراطورية من الخراب والدمار ، وأزال
عن الشعب الروماني ذلك الكابوس المزعج . . .

كان كاليجولا جميلاً متأنقاً ، يميل إلى الفرح والمرح ، لكنه كان يحمل بين ضلوعه قلباً قدّ من الصخر الأصم ، ويتوق دائماً إلى الضرب والبطش ، لا يحلّ له عيش إلا إذا خضب يديه ولو مرة واحدة في يومه بنجيع الأبرياء .

نهض ذات يوم وهو متعطش كهادته إلى الدماء ، فأمر زبانيته بأن يذبّحوا أمام عينيه أربعين من الأسرى والعبيد والأشراف الذين تأمروا على حياته ، وعند ما أشار عليه أحد المقرّبين إليه بأن يعفو عنهم لكي يكتسب بعفوه حب الشعب الروماني ، أجابه صائحاً :

— وددت لو كان للشعب الروماني رأس واحد لكي أقطعه بضربة واحدة !

وكان الرومانيون في ذلك العهد ، عند ما تقع مثل هذه الحوادث الدموية ، لا يجرون على نقل أخبارها ، بل يكتفون بقولهم المعروف : « الامبراطور يلهو ! »



غضب كاليجولا ذات يوم على القنصل « افرانيوس » Afranius ، فألقى به من نافذة القصر إلى الشارع ، حيث سقط المسكين ميتاً ، فصاح الشعب قائلاً :



الامبراطور كاليجولا على حصانه أنسيناتوس

— من تعين لنا قنصلا مكانه ياقيصر ؟

فأجاب كاليجولا مقهقهاً :

— حصاني !

وعين ذلك الامبراطور المعتوه حصانه « أنسيناتوس » Incinatus

قنصلا رومانياً ! وكان يمتطى متن ذلك « الحصان - القنصل » ويخرج

للزهوة في شوارع المدينة ، فيطأ الحصان بحوافره رؤوس الرومانيين

الساجدين أمام قيصر ، فيضحك كاليجولا ، ويردد الشعب
خائفاً مرتعداً :

— الامبراطور يلهو !



قال لعشيقة ذات ليلة بعد أن سكر بنشوتي الخمر والغرام :
— قبضت اليوم على أربعة من أشرف روما ، قيل لي أنهم
يتآمرون عليّ . وقد أعددت سوطاً من جلد الماعز ، أريد منك أن
تضربي به كل واحد من أولئك الأشراف الأربعة ثلاثين ضربة على
مرأى من الناس !

فذهرت المرأة وقالت :

— اعفني من هذا أيها الحبيب ولا تجعلني أعتدى على حقوق
الجلاد ! ألا تخشى أن يؤدي هذا الاضطهاد إلى كره شديد تغذيه
أعمالك في نفوس الرومانيين ؟
فأجاب قيصر ضاحكاً :

— ليكرهني الرومانيون ! هذا لا يهمني ! ولا أرغب إلا في
شيء واحد وهو أن تخشاني روما وترتعد أمامي !

وضربت المرأة ، عشيقة قيصر ، كلا من الأشراف الرومانيين
ثلاثين جلدة أمام الناس ، في أحد الميادين العامة . . .

وردد الشعب الخائف الخانع :

— الا.براطور يلهو!



جاءته يوما الموضع « جونيا » Junia التي حملته على ذراعيها طفلا ، وأرضعته لبن ثديها ، وكانت تحنو عليه حنو الأم على ولدها ، وقالت :

— أى بنى قيصر ، جئت أطلب منك أن ترعى بعين عنايتك ابنتى « ستيللا » Stella التي عرفتها طفلة ولعبت معها فى الطرق والغابات ، وقد أصبحت الآن فتاة كبيرة أبحث لها عن زوج بين شبان روما الأشداء النبلاء .

ووقع نظر الامبراطور على أخته فى الرضاعة ، فهاجت حواسه بهيمية ، وأراد أن يجعل من الفتاة الطاهرة خلية ساقطة . . . رفضت المسكينة أن تنزل على إرادته ، وهال أمها أن ترتكب فى قصر الامبراطور تلك الفعل الشنعاء ولا تسقط قبة الفلك على الأرض ، فرفعت يديها تتضرع إلى الالهة طالبة انقاذ ابنتها من ذلك الوحش البشرى . . .

لكن الالهة لم تسمع نداءها . . .

وشربت الفتاة السم فماتت . . .

وشربت الأم السم فماتت أيضا . . .

وجاء ابنها يحاسب الإمبراطور على موت المرأتين ، فدبحه قيصر
بيده على عتبة الباب ، وألقى جثته إلى الخارج ، فطخت بدمها بلاط
الشارع ، ووقف الشعب حولها مبهوراً مذهولاً ، وردّد قائلاً :
— الإمبراطور يلهو !



خرج كاليجولا مع فريق من رجال حاشيته للصيد والقنص في
الجبال والهضاب ، فوصل إلى ضفاف بحيرة « نيمى » التى كان الرومانيون
يسمونها « مرآة ديانا » نسبة إلى ربة الصيد ، ابنة جوبتير العظيم ،
الالهة ديانا ، حارسة النباتات ، وصديقة الأزهار والرياحين .
مرّ الإمبراطور بمعبد ديانا ، المشرف من فوق هضبة خضراء على
البحيرة الهادئة ، فترجل عن حصانه « القنصل انسيناتوس » وطلب
من الكهنة هناك ماء وخرّاً . . .

ووقع نظره على رئيس الكهنة ، فاذا به أمام شيخ جليل ، يمشى
بطء متكئاً على عكاز . فسأل عن سنّ الرجل ، فقبل له إنه يناهز
المائة ، وإنه يخدم « ديانا » منذ ستين سنة . . .
فضحك الإمبراطور وقال :

— اضربوا عنقه فإنه من العار على روما أن يكون خادم ديانا
فيها شيخاً هرمًا مثل هذا !
وضرب الجنود عنق الكاهن . . .

وشحك رجال الحاشية مرددين :

— الامبراطور يلهو !

✱ ✱

ألقى كاليجولا نظرة حوالية ، فراق له ذلك الموقع البديع ، وقال
لخادمه لوسيوس :

— ينبغي أن أقيم في هذا المكان بضعة أيام في الشهر !

وحمل لوسيوس رغبة مولاه إلى القناصل والقواد والمقرّبين من قيصر ،
فجعلوا يتسابقون في إرضائه ، وأسرعوا إلى نقل سفينتين جميلتين
من بحر نابولي إلى بحيرة نيمي ، وحملوا الخبر إلى الامبراطور قائلين له
إن في استطاعته بعد ذلك اليوم أن يقضى أسبوعاً أو أكثر في إحدى
السفينتين ، في ذلك المكان الذي وجد حظوة في عينيه .

وأمر قيصر بأن ينفق المال لتوفير أسباب الراحة في السفينتين ،
فصدع العمال والجنود ورجال القصر لأمره ، وأعدوا السفينتين لاقامة
قيصر . . .

نقلت إليهما الأسرة والمقاعد والوسائد من قصر كاليجولا . وجلس
الموسيقيون في الأماكن المعدة للجذافين . ووضعت سلاسل من الذهب
والفضة محل الأشرطة . وعلقت فيها المصابيح الملونة . ومزجت زيوت
المصابيح بالبخور والعطور . . .

وتفرقت النساء في غرف السفينتين وعلى ظهريهما ، لخدمة قيصر ،
وأصدقاء قيصر .

وقضى كاليجولا ليلة في إحدى السفينتين وليلة في السفينة الثانية .
ثم عاد ففقد في ذلك الفردوس العائم ليالى كثيرة ، خطر له في إحداها
خاطر غريب ، فصاح بمن كانوا يحيطون به :

— أريد أن أعلم إذا كان الانسان يفرق في هذه البحيرة أم لا .
كم معنا هنا من العبيد ؟

فأجابوه :

— في هذا المركب ثلاثون عبداً . وفي الثانية عشرون . . .

— اقدفوا بهم جميعاً إلى الماء !

فصدع الرومانيون الأشراف لارادة قيصر ، وألقوا العبيد في اليم ،
وجعلوا يضربون بالمجاذيف كل من حاول النجاة منهم ، ففرقوا جميعاً ،
بين الصباح والقهقهة ، وردد الشعب المحتشد على شاطئ البحيرة :

— الامبراطور يلهو !

*
* *

قيل لكاليجولا في صباح يوم من أيام الخريف ، إن مؤامرة تدبر
لاغتياه ، فعهد إلى اثنين من أصدقائه بالبحث عن المتآمرين للقضاء
عليهم ، وغادر روما مسرعاً إلى سفينتيه ، في بحيرة نيمى .

وأراد أن يقضى تلك الليلة في سماع الأغاني والأناشيد ، فطلب إلى النساء اللواتي في السفينتين أن يسمعهن أحسن ما عندهن من غناء .
 وجعلت كل واحدة من أولئك الأسيرات الغريبات تترنم بأشودة من أناشيد وطنها ، فتصاعدت من السفينتين ألحان متباينة ، ولغات مختلفة ، ولهجات متناقضة ، وامتزحت في ذلك الجو الهادي .
 واسترعت سمع قيصر أنشودة حزينة ، منبعثة من صدر مكلوم ، كانت تنشدتها فتاة في العشرين من العمر ، جاثية على مقربة من سرير الامبراطور .

أوما إليها كاليجولا بأن تقترب ، فهضت مرتعشة خائفة ، وتقدمت خطوات نحوه ، وجثت ثانياً على ركبتها . فقال قيصر :
 — انهضى يا ابنتى ولا تخشى شيئاً . ما اسمك ؟
 — سيفا . . .

— من أية بلاد أنت ؟

— من مصر .

— من هو أبوك ؟

— اسمه « بروكلوس » Proclus . كان جندياً في الجيش الرومانى

هناك ، وتزوج امرأة مصرية ، ثم مات وماتت أمى أيضاً ، وجيء بى إلى روما حيث أرسلونى هدية إليك يا قيصر .

— ومن جاء بك إلى روما ؟

— الضابط ليبيدوس Lepidus ، من رجال حرسك يا قيصر !

— ليقتل ليبيدوس وتلقى جثته في الماء !

فوثب الجنود على الضابط ، وقتلوه ضرباً بالخنجر ، وألقوا جثته في البحيرة ، فتهامس المدعوون فيما بينهم : « ما الخبر ، ولماذا حدث ما حدث ؟ »

ثم رددوا قائلين ، مبتسمين :

— الامبراطور يلهو !

* *

وقال كاليجولا لابنة المصرية :

— أعيدى على مسمعى الأنشودة التى كنت تنشدونها ...

وأمر بأن تسكت النساء فى السفينتين ، ثم ارتفع صوت عذب ،

جميل ، مترنماً بأغنية يذكر لحنها بنوح اليمام على الأغصان :

« فى الدنيا بحار كثيرة

لـكنك أجمل البحار ...

فى الدنيا أنهر كثيرة

لـكنك أجمل الأنهر ...

أمنى على شاطئك تغنى

وأخى على ضفافك يزرع ...

يا بحر أُمى - يا نهر أخى -

يا أجمل البحار - يا أجمل الأنهر ! »

سكتت الفتاة . وساد الصمت . ونفرت دمعة من العين التي لم
تعرف الدموع من قبل : عين قيصر كايوس جرمانيكوس كاليجولا !
وقال الامبراطور :

— أى بحر تعنين يا ابنتى ؟

— بحر الاسكندرية يا قيصر !

— وأى نهر تعنين ؟

— نهر النيل يا قيصر !

— من علمك هذه الأنشودة ؟

— أمى !

أنا أيضا أعرف هذه الأنشودة . فقد كانت جونيا ، مرضعتى ،
أمى ، تترنم بها على ضفاف النهر الصغير حيث ربيت ! وجونيا رأت
النور فى مصر ، مثل أمك يا بنيتى . وقد قتلت جونيا يدي !

وساد من جديد سكوت رهيب ، مرزقه الامبراطور فجأة ، صائحا
بصوت دوى كالرعد فى سكون الليل :

— لقد مللت « مرآة ديانا » كما ملت روما وضوضاءها ! لا أريد
أن أهجر هذا المكان إلا بعد أن أترك فيه أثرا للأحقاب المقبلة .
عودوا جميعا إلى البر ، بعد أن تفتحوا فى كل من السفينتين ثغرة كبيرة
تندفق منها المياه إلى الداخل ، فتغرق هاتين الجنتين العائميتين ، بما
فيهما من أوان وتحف وكنوز وأموال !

ثم التفت قيصر إلى الفتاة المصرية وقال :

— أما أنت يا ابنتي ، فاني سأجعلك بين نساء القصر معززة

مكرمة ، وأجعل منك الزهرة المنصرة في حديقة كاليجولا !

فانكبت الفتاة على قدميه تبليهما بالدموع . لكنها لم تكن راضية

بما كتب لها على صفحة القدر ، ولم ترق لها رغبة قيصر في جعلها المرأة

المختارة بين نسائه . . .

كانت تحن الى وطنها ، ولا تلد لها الحياة بعيدة عن ذلك الوطن !

وبينا الرجال والنساء يغادرون السفينتين على أثر قيصر ، إذا

برسول يحمل إليهم خبراً هاماً من روما :

— قيصر ! لقد تمكن رجالك المخلصون من القبض على المتآمرين !

— وماذا صنعتهم بهم ؟

— ذبحناهم !

— كم كان عددهم ؟

— تسعة رجال وامرأة .

— حسناً صنعتهم . . . والشعب ؟

— إنه يتضرع إلى الآلهة بأن تطيل عمر قيصر ! وقد ذبحنا

المتآمرين تحت سور « الكابيتول » بينما الشعب يردد :

— الامبراطور يلهو !



جلس كاليجولا على ضفاف البحيرة ، في مكان مرتفع ، يحيط
به رجال الحاشية ومن كان في السفينتين من عبيد واماء . .
ولبت الجميع ينتظرون غرق السفينتين . . .

وبينما المياه تتدفق إلى داخلهما ، وتغور « الجنتان العائمتان » رويداً
رويداً في الماء ، إذا بصوت حزين ، بعيد ، ينوح منشدًا :
« يا بحر أمى - يا نهر أخى -
« يا أجمل البحار - يا أجمل الأنهر ! »

فانتفض قيصر ، وقد عرف صوت الفتاة المصرية ، وسأل قلقاً
مضطرباً :

— أين هي ؟ ومن أين مبعث الصوت ؟

فسكت الجميع لأنهم أدركوا ان الفتاة بقيت في السفينة ، وآثرت
الموت غرقاً على الحياة في روما ، والرقود في قاع البحر على الرقود في
فراش قيصر !

وضمت المياه في أحضانها سفينتي كاليجولا ، بكنوزهما ، وأزهارهما ،
ومن بقي فيهما من الأحياء . . .

ووجم قيصر ، وظلّ يحدق البصر في الأمواج المتكسرة على
صخور الشاطئ ، وكلمات الفتاة ترن في أذنيه :

« يا بحر أمي - يا نهر أخي -

« يا أجمل البحار - يا أجمل الأنهر ! »

وفرت دمعة أخرى من عينيه ... وردد المتفرجون على ذلك

المنظر الرائع :

— الامبراطور يلهو !



الاسكندر والمصرية الحسنة

صور . ! . يا مسقط رأس حيرام مشيد الهياكل لسليمان الحكيم !
يا موطن البحارة الشجعان ، الذين ضاقت بهمهم أسوارك فركبوا متن
اليَمِّ وعمروا في مجاهل الغرب قفر الديار ! يا أخت المدينة وحاملة حضارة
مصر إلى قضى الأمصار ! يا مدينة دثرت معالم مجدها بعد عز وسلطان ،
فبقيت أعمدة هياكلها وحجارة قلاعها دليلا على أن دولة المادة زائلة
ودولة الفكر على ممر الدهور باقية !

صور ! يا فخر فينيقيا وسيدة البحار وقاهرة العجاج ! هل لجارتك
الصماء ، أن تقص علينا أقاصيص الغرام والانتقام ، وأن تفضي إلينا
بأحاديث الحروب والفتوحات ؟

أنت أيتها اللوحة المرمرية ، الملقاة هناك ، التي طالما أهرقت على
صنحتك البيضاء دماء البنين والبنات ، يرفعها أبناء فينيقيا ذبيحة

على هيكل الاله الأكبر « ملكارث ! » هل لك أن تخبرينا عن تلك الفتاة المصرية الحسنة ، التي فرّت من بلادها واحتمت وراء جدران هيكلك ، فلاقاها الهلاك من حيث طلبت النجاة ، ثم أنقذها الأسكندر ذو القرنين من بين محالب الكهنة القساة القلوب ؟



إليك أيها القارىء ما ترويه تلك اللوحة الأثرية ، التي تغمرها المياه وتعبث بها الأمواج :

وصلت إلى المدينة قافلة فينيقية قادمة من مصر ، وحطت رحالها أمام الهيكل الأكبر ، ومعها عدد لا يحصى من الجوارى والعبيد ، أرسلهم تجار مصر إلى تجار صور ، للمقايضة على الأنواب المزركشة والجواهر الثمينة. ودخل أحد رجال القافلة على كاهن « ملكارث » وقال :

— أيها السيد . أحمل إليك تحية زميلك المصرى كوفيس . وقد عهد إلى بمهمة شاقة أقسمت له برفات أجدادى أننى قائم بقضاها
— أرد على صديق كوفيس تحيته بأعطر منها وأزكى . والآن :
تكلم . أية مهمة عهد بها إليك أخى المصرى ؟

— دفع إلى فتاة صغيرة وقال : « خذها معك يا عبدومين إلى صور . وقل لأخى خادم البعل ملكارث اننى أضعها عهدة فى كنفه وأمانة بين يديه . ليحتفظ بها فى الهيكل ، حتى إذا ما حان وقت عودتها إلى وطنها ، طلبت إليه أن يردّ الأمانة إلى أصحابها . » فجئتك بالفتاة

أيها السيد ، وهى فى الخارج مع زوجتى وابنتى .
— أدخلها ولا تبخ لأحد بشيء مما قلته لى .



أقامت الفتاة « ميليتا » فى هيكل البعل تسعة أعوام ، ودخلت فى
سلك الكاهنات ، فكانت تسهر على إحراق البخور أمام الأصنام ،
وتشارك مع أخواتها القينيقيات فى أناشيدهن وتضرعاتهن إلى تموز
ربّ الجبال ، وعشّرت ربة الحب .

لكن الهدوء الذى كانت تعيش فيه فى هيكل هادىء ، والأمان
الذى كانت تنعم به فى بلاد آمنة ، لم يدم عهدهما طويلا .
ذلك لأن الحرب حلت محلّ السلام ، بقدم الاسكندر المقدونى
إلى البلاد غازيا ، واحتلاله المدن والأمصار فاتحا .

وصل أمام صور وأقام حولها الحصار وشدّد عليها الخناق ، فرأى
الكهنة أن صلواتهم وتضرعاتهم لا تجدى نفعا ، فعمدوا إلى الاستعاضة
عنها بكثرة الذبائح والضحايا ، ظنّا منهم أن الآلهة — وقد أسكرتها نشوة
الدماء المسفوقة — ستدفع عنهم غضب الفاتح وترد جيشه على أعقابهِ !
وملكارث إله يحب الدماء الحمراء ، ويتلذذ برؤية الأعناق تحزها
يد الجلاذ !

تقرّر أن تصعد كل يوم على المذبح ضحية عند شروق الشمس ،
وأخرى فى منتصف النهار ، وثالثة بعد الغروب !

وكان الآباء يقدمون راضين مرتاحين بنانهم العذارى ، لأن
ملسكارث لا يتقبل على مذبحه غيرهن في أوقات الأحن والحروب !
وسالت الدماء الزكية ، وعلا البكاء والعويل ، وتعاضم الخطب ،
وعمّ الحزن المدينة . . .

والاسكندر يعاند الصوريين وآلهتهم ، ويهاجم الأسوار ويحاول
اقتحام الأمواج . . .
وجاء دور الكاهنات . . .

ثلاث فتيات منهن يصعدن كل يوم إلى المذبح ، ويسلمن أعناقهن
للخناجر المقدسة !

ومضت خمسة أيام والعدو لم يتقهقر ولم يظهر عليه وهن ولا عياء . . .
طلعت شمس اليوم السادس . . . ودخلت أشعتها من خلال
النافذة إلى مخدع ميليتا . . .

حدقت الفتاة بصرها في تلك الخيوط الصفراء ، التي جاءت تنذرها
بقرب الأجل . . .

اليوم يومها . . .
عند ما ينتصف النهار ، ستودع الحياة الوداع الأخير ، وترتدى
ثوبها الأبيض الناصع ، وتذرف الدموع الأخيرة على شبابه الغض
وجالها الذي لم ينعم به رجل !

ذكرت بلاداً رأت النور فيها ، وبيتاً لعبت فيه طفلة ، وأباً كان

يحبها ، وأماً كانت تضمها بحنان إلى صدرها . . .
ثم ارتسم أمام عينيها ذلك المنظر الفظيع : رأت أباهما يعنف أمها ،
ثم يشور ثوراناً شديداً ، فيتناول هراوة ويهوى بها على رأس زوجته
رأت أباهما القتاتل ! ورأت الجنود يقبضون عليه ويسوقونه إلى
ساحة الأعدام . . .

وأجهشت المسكينة بالبكاء . . .

يا للذكريات !



— ميليتا . . ! تقدّمي أيتها العذراء ، فقد اختارك الإله من بين
أخواتك ذبيحة طاهرة ! اصعدي إلى المذبح كالحمل الوديع ، وقبلي
النصل المقدس الذي صنع الإله قبضته بيديه !
انتفضت الفتاة رانثاتها رعشة شديدة . ثم دارت الأشياء حولها ،
فرأت بقعاً حمراء في كل مكان . . .

وصعد الدم إلى رأسها فصاحت بالقوم قائلة :

— أيها القساة الأجلاف ! لست من بنات جلدتكم ، ولست من
عبدة آلهتهم ! إن أسلم عنقي لـكلهن من هؤلاء الكهنة ، ولن أجثو
أمام هذا الإله الذي لا يرضيه غير منظر الدماء ! دعوني أخرج إلى العدو
فهو أرحم منكم بضعف النساء . . ! . دعوني أرجع إلى بلادي فأخدم
آلهة أقل قسوة من آلهتكم !

فدوى المكان بصيحات منكرة ، وارتفعت الأصوات باللعنة على
الكاهنة المجدفة !

ووثب عليها الكاهن الأعظم — ذلك الذى تعهد بالاحتفاظ بها
أمانة بين يديه — فقبض على عنقها ، وساقها إلى المذبح حيث سقطت
على الأرض شاكية باكية !

وأحاط بها الكهنة كالذئاب ، وأشاروا إلى الشعب بأن يلزم
الصمت ، فهدأت الأصوات .

لكن صياحاً عالياً ارتفع فجأة فى خارج الهيكل ، تبين القوم من
خلاله عويل النساء وولولتهن .

أنصت الجميع باهتين لاهتين . . .

وماهى إلا لحظة حتى اقتحم باب الهيكل مقتحم وصاح مدعورا :

— الأعداء ! الأعداء ! الاسكندر فى المدينة !

ماج الحاضرون دفعة واحدة طالبين النجاة من الباب . لكن
الكاهن الأكبر رفع عقيرته صائحاً بهم : « أيها المجانين إلى أين
تذهبون ؟ أفى المدينة ملجأ أفضل من هذا ؟ لن ينالكم ذو القرنين
بضرر ما دتم فى الهيكل مقيمين ! »

فلم يخرج من الباب أحد . بل ظلوا جميعاً فى أماكنهم ، وعادوا إلى
تضرعاتهم للمكارث ، إله النار الملتهبة والدماء المسفوكة !



الاسكندر

ترجل الاسكندر أمام الباب عن صهوة جواده ودخل الهيكل .
فخرّ الحاضرون على وجوههم وسجدوا إلى الأرض . . . ما عدا
ميليتا . . .

كانت الفتاة ملقاة على سلم المذبح تنوح وتبكي . لكنها رفعت

رأسها عند ما دخل الاسكندر ، وارتسمت على شفيتها ابتسامة أمل ورجاء
 فاسترعت نظر الفاتح الشاب ، وأقبل عليها ، رائق النظر ، باسم
 النغر ، ومدَّ إليها يده ، فطبعت عليها الفتاة قبلة ، وانحدرت مع القبلة
 دمعة حارّة من عين المصرية الحسنة .

وقال الاسكندر :

— ما اسمك ؟

— ميليتا .

— في أي بلد ولدتك أمك ؟

— في مصر .

— ما جاء بك إلى هنا ؟

— القدر الساخر !

فنادى ذو القرزين كاهن ملـكارث سائلاً :

— من جاءك بهذه الفتاة ؟

— كان أبوها خادماً لاله مصر . زنت عليه زوجته فقتلها ، وسُلم

للجلاد جزاء جرمه . وقد أُرِفد إلى صديقي كوفيس هذه الفتاة لكي

أجعل منها خادمة لملـكارث ، كفارة عن ذنوب أبيها .

— متى كان الأبناء يؤخذون بجريرة الآباء ؟ ومتى كان البرىء

يكفر عن المذنب ؟

نزع القائد الكبير رداءه عن كتفيه ، وألقاه على الفتاة قائلاً :

— أنت حرّة طليقة يا ميليتا . وإذا أردت العودة إلى وطنك
فإن كوكبة من فرسانى تصحبك وتحرسك فى الطريق .

*
* *

شتت الاسكندر شمل الفرس فى افسوس ، وسحق جيوش دارا
الجرارة فى إربيل ، ودان له الشرق ، وحمل إليه الأمراء والأقوال
والملوك مفاتيح مدنهم ، وأعلام ممالكهم ، وخزائن جواهرهم .

وكان ذلك القائد لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من عمره !
أسلمه النصر قياده ، وخنع له المجد صاغراً ، فأسكرته نشوة الظفر
المتواصل ، وجنحت به عن طريق الصواب .

سار من موقعة إلى موقعة ، ومن ميدان إلى ميدان ، ومن سلطنة
إلى سلطنة ، يسوق الأبطال أمامه ، ويقيد بأغلال الرّق من كانوا
بالأمس يسترقون العباد !

ويدمن على الخمر إدمانه على النصر !
عبثاً حاول حكماء اليونان الذين كانوا يسرون بمعيته أن يحوّلوه
عن الشراب ، وعبثاً حاولوا أن ينقذوا تلك العبقرية العظيمة المنتجة
من الضياع .

تناول ذات يوم كمية هائلة من الخمر ثم نزل إلى النهر للاستحمام .
وخرج من الماء مريضاً ، وبعد أيام بكته جيوشه المظفرة ،
وبلاده الشكلى .

وكانت الفتاة المصرية ميليتا قد تبعته من صور ، تلازمه في سفره ،
وتقدّم له الطعام في مضربه .

فلما مات الاسكندر دفنت معه آمال ميليتا في الحياة !



رفع الجيش مضاربه ، حاملاً جثة الفاتح العظيم والمليك المحبوب ،
وعثر الجند في خيمة صغيرة ، على ضفاف النهر ، على جثة المصرية
الحسنة ، وقد اخترق صدرها خنجر ذو قبضة ذهبية مرصعة بالجواهر ،
عليها رسم الاله ملكارث المتعطش دائماً إلى الدماء !



ابنة النيل

« فاليينا » فتاة مصرية حبتها الطبيعة بمنظر وسيم وجمال أخاذ .
كانت جدتها فى قصر « كليوباترة » أمة بين الاماء ، تقدم العطور
للملكة النيل ، وتحرق البخور فى مخدع فاتنة الرومان .
نالت حظوة فى عيني مولاتها ، فأعتقتها وأطلقت سبيلها . فأقامت
فى الاسكندرية ، حيث اتخذت أحد الجنود رفيقاً لحياتها ، ورزقت منه
مولوداً بذلت عنايتها فى تربيته ، فصار جندياً شجاعاً كأبيه الجندى
الشجاع .

وهو والد « فاليينا » الفتاة الحسنة ، التى تبيع الماء لسكان
الضواحي ، فتساعد أباهما بما تكتسبه من دريهمات على سد حاجات
الأسرة الصغيرة .

لكن قرصان البحار ولصوص الرقيق كانوا لها بالمرصاد ، يترقبونها
فى روحاتها وغدواتها ، وقد رأوا فيها نموذجاً حياً للجمال المصرى ،

وسلعة قابلة للرواج في سوق تجارتهم الخسيسة .

وانقضوا عليها ذات يوم ، وهي عائدة إلى المدينة ، انقضاض الذئاب الكاسرة على النعجة الضالة ، فاحتملوها إلى سفينتهم ، وألقوها مقيدة باكية بين النساء المقيدات الباقيات ، اللواتي اختطفهن أولئك اللصوص من أكواخ الفقراء وقصور الأغنياء على السواء .

ورفعت السفينة مرساها ، وأقلعت قاصدة إلى حيث تجار الرقيق في الانتظار ، لعرض الأسلاب والسبايا على هواة اللحوم البشرية !

وكأنى بالقدر القاسي ، وقد قضى من قبل بفك قيود الجدة في قصر كليو بطرة ، أبي إلا أن يعيد إلى الأسر والعبودية حفيدتها المسكينة ، فلوى عنق الفتاة الحرة ، تحت النير الذي طالما رزحت تحته الجدة المعتوقة !

تقاذفتها المطامع والشهوات ، وتناقلتها أيدي أسياد بعد أسياد ، وحطت أخيراً رحال شققائها في قصر نيرون الأمبراطور ، بمدينة روما العظمى ، فبيعت هناك مع ثلاثين من أخواتها ، لصاحب القصر وسيد الرومان .



قتل نيرون « أخاه » بريتا نيكوس ، وأخذ أنفاس أمه أجربينا ، وتخلص من زوجته أوكتافيا ، وبعث إلى عالم الأموات بجليلته بوبيا ، وكان لا يلد له عيش إلا وسط الدماء المسفوكة ، والجثث المكدسة ،

والنيران المتصاعدة ، وأنان الجرحى ، وزفرات الشكلى .
 وكان لا بد لذلك القلب الشارد الجموح أن يخفق بحب غريب
 شاذ ، لم يذكر مثله تاريخ ، ولم يحلم به إنسان . وهل هناك ما هو أشد
 غرابة ، وأبعد شذوذاً ، من أن يحب الرجل قرداً ، ويطيّر لبه به
 هياماً ، ويضعه فى منزلة دونها منزلة الأمّ والزوجة ، والصديق والقريب ؟



الامبراطور نيرون

فعل نيرون ذلك ، فى وقت لم تكن فيه نظرية التطور قد ظهرت
 بعد ، لىكى يقدم إنسان على ما أقدم عليه ذلك الامبراطور ، بحجة أن

آباءنا قد سكنوا المغاور مع آباء ذلك القرد ، وأن أجدادنا قد تسلقوا
الأشجار مع أجداده . . . !

فعل نيرون ذلك لأن القوة المكوّنة وضعت في قفص ضلوعه
قلباً ليس ببقية القلوب . ولأن للطبيعة أحياناً مثل هذا الهذيان ، فما
أكثر الوحوش البشرية في العالم ، وما أكثر البهائم والزوايل التي
تسمو بالفضيلة على الانسان الناطق !

أحبّ إذن نيرون ذلك القرد السعيد بين القردة وشيد له القصور
في عاصمة ملكه وفي ضواحيها ، وأوقف على خدمته حاشية كبيرة من
الرجال والنساء ، والشبان والبنات ، وعلى حراسته كوكبة من الفرسان ،
وفصييلة من حملة الرماح . فذاق القرد المحبوب من حلوى الحياة ما لم يذقه
من قبل حيوان ، ونعم بما لم ينعم به محبّ أو محبوب ، أو أمير من
أمراء الدولة ، أو غادة من فائنات البلاط !

وشاء القدر أن يقع الاختيار على « فالينا » المصرية ، للاقامة في
أحد قصور ذلك السيد الجديد ، تقدّم له العطور وتحرق له البخور ،
كما كانت تفعل جدّتها من قبل في قصور الملوك !



كان الطاغية الروماني يزور قروده كل يوم مرة أو مرتين ، حاملاً
إليه الثمين من الهدايا ، والطيب اللذيذ من الطعام والشراب . وكانت
تحلوه معاقرة الخمر بين الغيد والحسان ، في أحد القصور التي شيدها

لذلك القرد بأموال أمته ، فيضطجع على المساند المزركشة ، والوسائد
الحريرية ، والقطائف الأرجوانية ، وقرده بين ذراعيه ، والخور من حوله
يرقصن في ثوب حواء !

« الرجل ذو اللحية المخضبة بالحناء . . . » هذا هو الاسم الذي
كان الناس يطلقونه على نيرون قبل أن يسموه « حارق روما » - وهو
أيضاً الاسم الذي أطلق من قبل على آباء نيرون وأجداده .

وما دعوه بذى اللحية المخضبة بالحناء ، إلا لأنه كان - كأبائه
وأجداده أيضاً - يصبغ لحيته الصغيرة بسائل هو خلاصة الحناء ،
يحملونه إليه خاصة من الأقطار الشرقية الخاضعة لسلطانه . وكانت
« فاليينا » قد نالت رضى ذلك المولى الخطير ، فكان يعهد إليها بتخضيب
لحيته مرة في الأسبوع !

جلس ذات يوم يمعن النظر في الحسناء وهي تقوم بمهمتها ، وأصابعها
تداعب بشرة الامبراطور ، فراقه جمالها البارع ، وأسكره الشذا المنبعث
من جسمها البضّ ، وانبسطت أساريه دهشة لاغفاله هذا الكنز
الثمين ، والشباب الزاهر . . .

واستيقظت سليقة الحيوان في صدر ذلك الحيوان ، فطوّق الجلف
خصر العذراء بذراعيه الخشنتين ، ودنست شفثاه الغليظتان صدرها
المرمرى الطاهر . . .

لكنها انتفضت نافرة نفرة الطيبة من لسعة الأفعى ، وتراجعت

مذعورة إلى ركن قصي في الردهة لواسعة، وجثمت هناك مرتعدة خائفة!
تبعها الامبراطور والنمر يتطاير من عينيه، وقد ثار ثأره وهاجت
شراسته أمام هذه الفتاة الجميلة الوقحة، التي تقاومه وهو السيد المطاع،
وتأبى الاستسلام بين ذراعيه، وهو الذي تسعى إليه من أطراف
المملكة نساء القواد وبنات الأقيال!

قبض على شعرها بيده الحديدية، وجرّها إلى وسط القاعة جرّاً،
وهو يلهث من الغضب ويصيح:

— لعنة الآلهة عليك وعلى من جاءني بك! أجازية تعصى إرادة
نيرون القويّ الجبار؟

فاستجمعت الفتاة قواها أمام الخطر، وصاحت في وجه الغاصب:
— القويّ الجبار يصبح ضعيفاً جباً إذا رفع يده على امرأة!
بهت الطاغية لردّها، وتلاشت حدّته، وقال بهدوء وسكون:
— حسن. انهضى إذن واتبعيني...

لكنها شعرت بالخطر يتزايد، فتذرّعت بالشجاعة وأجابت:
— لقد سلبتني حرّيتي أيها المولى، لكنك لن تسلبني شرفي
لأنني لن أمكنك منه!

وفرت من الردهة مهرولة في أروقة القصر، هائمة لا ملوى على شيء.
وظلّ نيرون وحده، يتميز غيظاً... ثم ارتسمت على فمه ابتسامة
رديفة وتمتم قائلاً:

— سوف يكون عقابك عبرة لسواك !

*
* *

١٩ يوليه سنة ٦٤ للميلاد . . .

ألسنة النيران تندلع في جهات المدينة الأربع ، والدخان يتصاعد في
الفضاء سخاباً كثيفاً ، والقصور والمنازل والهياكل تنهار وتتساقط ،
وعويل المنكوبين البائسين يمتزج بصراخ الجنود الذين عهد إليهم
قيصر باضرام النار !

تسليمة أرادها نيرون فكانت !

أمر الامبراطور باحراق عاصمة ملكه ، فاندفع الجند ينفذون أمر
الامبراطور ، وذهبت المدينة الجميلة ، وما حوته أحيائها من طرائف
وأرواح ، وقيداً لذلك الحريق . . .

ودون التاريخ في سجلاته حادثاً من أفضع الحوادث التي شهدتها
الناس منذ القدم . . .

وطاف زبانية قيصر بالمشاعل متغلغلين في الأزقة والطرقات ،
حاملين النار إلى القصور والأكواخ والخوانيت . . .

ورأى الناس الجند يرفعون في أحد الميادين مشعلا ليس كغيره
من المشاعل . . .

ولم يكن ذلك المشعل الذي طاف به زبانية نيرون في المدينة

المنكودة الحظ ، غير جثة « فاليينا » المسكينة ، التي طوّحت بها
الطوائف ، فدافعت عن عرضها وشرفها ، وقضى عليها الامبراطور بالموت
حرقاً !

هكذا ماتت ابنة النيل في روما ، شريفة النفس طاهرة الذيل ،
ضحية من ضحايا نيرون العديدة ، بينما الطاغية الغليظ الكبد ، ينشد
أناشيد هوميروس ، في شرفة قصره ، على نغمات القيثارة ، وعلى ضوء
المدينة الملتهبة والمشاعل البشرية !



بأمر الحاكم بأمره

كانت مصر حوالى سنة ٣٩٠ هجرية تئن تحت نير من الظلم الأصمّ الذى يلهمه الجهل وينفذ ويلاّته الجنون ، وذلك فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى وإذا شئت فسمّه كما كان يسمى نفسه : الحاكم بأمره . ولد الحاكم فى القاهرة سنة ٣٧٥ هجرية ، وهو سادس الخلفاء الفاطميين ، وأوّل واحد منهم رأى النور فى مصر ، وبويع بالخلافة بعد والده « العزيز » سنة ٣٨٦ هجرية ، وهو فى الثانية عشرة من عمره . لا أحدٌ ثك عن سيرة ذلك الجبار الذى استهلّ حكمه بقتل مربيّه ووزيره ، ولا عن عهده المملوء بالمظالم ، لأنك قد اطلمت بلا شك على ذلك كله فى كتب التاريخ . واسكنى أحدٌ ثك بما لم تقرأه فى كتاب . أحدٌ ثك عن سيرة « عمرة وقاسم » وقتلهم بأمر الحاكم بأمر الله .



كان في مدينة الاسكندرية ، في ذلك العهد ، رجل رثّ الحال ،
معدم المال ، يعيش من زراعته في كوخ حقير ، بعيداً عن ضوضاء
الناس وشرورهم ، ليس له من قريب أو حبيب إلا ابنته .
وكانت الفتاة « عمرة » بارعة الجمال ، ممشوقة القوام ، تذاخر من
العمر أربعة عشر ربيعاً .

حبسها أبوها في كوخه ، ومنعها الهواء قبل العيون ، لا ظمأ لها أو
لا استبداد منه بها ، ولكنه خشي عليها صولة الحاكم بأمر الله .
على أن أبا عمرة كان يأذن لفتاته أن تخرج في أوقات من النهار
معلومة إلى شاطئ البحر ، فتبثه أحلام صباها ، وتحمل أمواجه
مكنونات قلبها ، ونفثات صدرها ، توجهها إلى حبيب هي أجهل به
من البحر !

ولقد طالما مزجت عمرة دمع عينها الرائق العذب بأمواء ذلك
العجاج الهائج الملح ، لذكري والدتها الخالية ، وشقيقها الثاوي ، وقد
بكتهما طفلة ، وعهدتهما صغيرة ، فانطبعت في ذاكرتها صورتاهما ،
وخير الذكريات ما نما مع العمر ، وانطبع في النفس الفتية .
وكان أبوها إذا عاد من حقله يوافيها إلى متنزهها بصنارتين لكل
منهما واحدة ، فيصطادان الأسماك على الشاطئ ، ويعودان بما سنج
من الصيد فتطبخه له فتاته .



العمود : الشهير بعمود بومي بالاسكندرية

وكان الوالد يحذر عمرة شرّ الرجال بل العيون الرقيبة ، إشفافاً منه
عليها ، وكان فيما قاله لها ذات يوم :
— أى عمرة المحبوبة ، إنما عيون الرجال شرّ من صنارة الصياد ،
ينصبها سافطو النفوس منهم للمفتيات البريئات ، فيعلقن بها كما تعلق

الأسماك الصغيرة بصنارتك . فحذار يا بنية من شرهم إنه لعظيم !
 دامت الحال على هذا المنوال مدّة من الزمن ، أمن فيها أبو عمرة
 المسكين شرّ الحاكم وضربات القدر ، ونسى أن الكدر يجي به صفو
 الليالي ، وظنّ نفسه بعيداً عن جواسيس الحاكم وزبائنته ، وما درى
 أنهم قد رصدوا فتاته ، وأن أمرها وصفتها قد بلغا الحاكم بأمره ،
 فاشتاق إلى رؤيتها ، وعقد النية على انتزاعها من يد أبيها .



أرسل الحاكم رسله يطلب الابنة من أبيها ، وما كان ليَجول في
 خلده أن فلاحاً مسكيناً يجرؤ على ردّ طلبه وعصيان أمره .
 ولسكن حبّ الوالد ، إذا أحسّ بخطر يهدّد من يحبّ ، لا يخفيه
 ملك جبار ولا سلطان ظالم .

رفض الأب أن يسلم كنزّه ، وأن يحفر قبر ابنته بيده ، فردّ
 الرسل خائبين ، وعمد في ليلة ليلاء إلى الهرب فراراً من وجه الظالم ،
 وظلّ يضرب في البلاد هائماً ولهان كطير الحمام أحسّ الباشق يهدّد
 فراخه ، فسالت نفسه هلعاً وطارَت شعاعاً .

ولسكن أبا عمرة المسكين ، كان أضعف حولاً وأقصر باعاً من أن
 يفلت من يد ذلك الجبار العنيد ، الذي كان يملأ النفوس رعباً وهولاً ،
 والذي كانت عيونه وأرصاده في طول البلاد وعرضها .

خرج الأب مع ابنته ذات يوم ، وبعد أن طافا خارج المدينة ،
 جلسا على مقربة من ذلك العمود الذي نصبه الرومانيون تخليداً لذكرى
 مرورهم في مصر وهناك داهمهما الجند وألقى القبض عليهما ، فأعيد
 الشيخ إلى كوخه حيث قضى أسفاً ولوعة ، واقتيدت الابنة إلى قصر الحاكم
 حيث فتك الجزار القاسى بالذبيح الطاهر ، وألقى به في زاوية من
 زوايا القصر ، حيث قضت الابنة المسكينة أياماً وليالي ، تبكي كل
 ما يبكي عليه في هذه الحياة من شرف ضائع ، وحرية مفقودة ، وعيش
 منعص ، ووالد لم تدر أميت هو فتبكيه أم حي فتعلل النفس ببقائه ؟
 إلى أن ترك الدمع في خديها أثراً ، وذهبت من ذلك الوجه الصبيح
 بهجته .

وكان على باب القصر الخارجى حارس أمين قد اصطفاه الحاكم
 للسهر على ضحاياه يدعى « قاسم » ، فكان هذا الحارس إذا ما أظلم الليل
 وقف ديدبانا يتجول تحت شرفات القصر ، يرقب المارة والناظرين ،
 حتى إذا خان القدر أحدهم فألقى نظرة على شرفة من شرفات القصر ،
 أخذ قاسم أنفاسه لساعته !

وكان قاسم منذ قيد الذبيح البرى إلى قصر الحاكم يسمع طوال
 الليالى ، وهو قائم على حراسته ، أنيناً يخرج من غرفة عمرة ، فيقطع نياط
 قلبه ، ويترك أثراً أليماً في نفسه .

وكان يسمع نداءها لوالدها ، ومناجاتها لروح والدتها ، فيودّ لو أمكنه أن ينقضّ على ذلك القصر فيهدمه بيديه حجراً حجراً ، لينقذ تلك البائسة التي لم يرها ، ولكنه درى بها ضحية من ضحايا حاكمه الظالم !
بدأ قاسم بعاطفة هي شفقة ورأفة . وما لبثت تلك العاطفة أن تحولّت إلى حبّ فوجد فغرام فهمام ، أنساه واجبه وأمانته لسيدته ، وأطار لبه وعقله ، فأمسى وأصبح يتحين القرض و يفكر في أحبولة أو دسيصة يتمكن بها من إنقاذ تلك الفتاة ولو ببذل دمه وروحه .



وكان للحاكم شقيقة يعرفها التاريخ باسم « ست الملك » ولكنها لأعجوبة من عجائب السماء ، لم تكن على شيء من قسوة أخيها وظلمه وفضاظته .

وكانت ست الملك كثيراً ما تتخلف إلى حرم أخيها ، تؤاسى هذه البائسة وتسلّي تلك ، فتلقى في ظلمات ذلك الجحيم بريقاً من نور السماء .
قدمت زائرة كعادتها ، وخلت بعمرة المسكينة المتعسة ، فيها لها ما رآته في وجهها من أثر الحزن العميق والشقاء الذي لاحدّ له ولا قرار .
قصّت عليها الفتاة قصتها ، والعبرات تخنقها ، والزفرات تشهد للسانها بأليم ما تقاسمه من جوى ولوعة وأسى ، فرقت ست الملك لها ، ولم تغادرها إلا بعد أن عتدت العزيمة على تمهيل سبيل الفرار لها .
وبعد أن وعدتها بذلك تركتها مؤمنة راجية .

وفكرت ست الملك في الطريقة المثلى لا نقاذ فقاتها ، فلم تر سبيلاً
 آمن وأضمن للنجاح من أن ترشو الحارس الموكل بحراسة القصر ليلاً .
 دعت إليها قاسماً ، وأفضت إليه بما يجول في صدرها ، بعد أن
 بذلت له الوعود الخلابه ، فارتضى قاسم على قدمي مولاته يسكب دموع
 الفرح والغبطة ، وأفضى إليها بما علق في نفسه من حب الفتاة حباً
 لجمته الشفقة وسداه الهيام والجنون .

وكان الحاكم بأمر الله يكره أخته ست الملك ولا يتردد في السكيد
 لها ، وقد اتهمها يوماً بتهمة شنعاء أوقدت في صدرها نار البغض ،
 وأثارت في نفسها رغبة الانتقام ، فسمت إليه بمكر ودهاء ، وبدأت
 تنفذ خطتها بمساعدة ضحايا أخيها على الافلات من يده .

وكان ذلك من حسن حظ عمرة التي استفادت من العداء القائم
 بين الأخت وأخيها .

فبعد أن رسمت ست الملك خطة الفرار ، وأطلعت الحارس عليها ،
 وأعدت لها العدة ، انسلت في ليلة ظمء إلى غرفة عمرة وأدلت بها من
 النافذة إلى الأرض ، على سلم كان قاسم قد حاكه بيده ، فتلقاها
 الحارس بين ذراعيه ، واحتملها جاريًا في ظلام ذلك الليل إلى قارب
 كان ينتظرهما على النيل !

وهكذا انتقامت الأخت من أخيها ، وفاز الحبيب بحبيبته ،
 وأفلتت عمرة من الأسر !



بلغ قاسم وعمرة الاسكندرية عملا بارادة الفتاة التي كانت تذوب
شوقاً إلى لقاء أبيها غير حاسبة حساباً لما ينتظرها به القدر .
بلغا الكوخ فإذا به قد تداعت جدرانها ، وإذا به قد أقفر من
ساكنيه !

فبكت عمرة بكاء مرّاً ، وسقطت قبر أبيها بما تبقى من الدموع في
عينها الداميتين ، وانصرفت بما تبقى في قلبها الحزين من العواطف إلى
حب منقذها قاسم ، ونامت آمنة شراً ما يخبئه لها القدر ، وظنت نفسها
البريئة أن السماء قد رأفت بها ، وأنها قد اكتفت بما نالها من شقاء
وبؤس وعذاب أليم !



ثار نائر الحاكم بأمر الله ، فأرغى وأزبد ، وبدأ يصبّ جام غضبه
وتقمته على حراسه وجواريه ، فخنق منهم ومنهنّ عشرات ، وألقى
في النيل عشرات آخر ، وبثّ رسله وجنده يبحثون عن الفارين ،
وواعداً متوعداً !

وخافت ستّ الملك أن يلحق بقاسم وعمرة أذى ، وأن تعاد
الفتاة إلى سجنها ، ويحكم على حبيبها بالموت شراً ميتة ، فأرسلت أيضاً
رسلاً وجواسيسها للبحث عن العاشقين ، وإعداد العدة لفرارها
خارج القطر .

فكان نضال عنيف بين الأخ والأخت : الحاكم يسعى إلى إهلاك
نفسين ، وأخت الحاكم تسعى إلى إقناذهما !

* * *

جلس الحبيبان على صخرة من صخور شاطئ البحر في
الاسكندرية ، حيث أقامت اليوم يد العمارة فنادق ومنازل ومصانع ،
يتبادلان غرامهما النامي ، ويتساقيان أجاديث الحب ، ويتطاعمان
قبلات الغرام ، وأمامهما البحر يوحى إليهما أنهما حران طليقان ،
ويوسوس لقلبيهما أن يد الظلم بعيدة عن أن تنالهما .

سكرا بنشوة الغرام ، وأسدل الحب بينهما وبين العالم ستاراً
كثيفاً ، فلم يفتننا إلى الخطر الداهم ، ولم يفكرا في أن السعادة لا تدوم
إلا إذا أحاط بها سياج من الخذر والتكتم والخفاء .

أجل ، هي ساعة نسيا فيها أنهما مهدور دمهما ، وأن لهما عدواً
يرتجف لذكر اسمه وادي النيل وما دونه من البلاد ، وأن ذلك العدو
العنيد لن يهدأ له بال إلا بعد أن يتم له الاقتصاص منهما والقضاء على
هنائهما !

* * *

كان الحبيبان على شاطئ البحر . . .
وإذا بجند الحاكم قد أحاطوا بهما إحاطة السوار بالمعصم ، وما هي
إلا لحظة حتى أثقلا بالقيود والأغلال ، وجرا إلى قبر مظلم هوسجن من

سجون تلك الأيام السود .

وزفت إلى الحاكم ابن العزيز بشرى القبض على الفارين المجرمين ،
وقصّ عليه أنهما كانا يتشاكيان الحبّ على صخرة على شاطئ
البحر ، فضحك ضحكة نمتّ عما في نفسه من حفيظة ومكر . . .
ثم أوماً إلى رسله قائلاً :

— قولوا للجنّد والجلّاد أن لا يمسوا الحبيبين بأذى ، وأن يقودوهما
حرّين طليقين إلى حيث كانا يتشاكيان ويتداعبان ، ثم يحفروا لهما
حفيرة ويدفنوهما ثمّ حين !



إذا قصدت أيها القارئ إلى مدينة الاسكندرية ، فسر حتى الصخور
المشرقة على مدخل الميناء الشرقى ، وسلّ خبيراً أن يهديك إلى محلة
« طابية السلسلة » وإذا بلغت ذلك المكان ، فاعلم أن أسس ماتراه
من الأبنية مشيداً مكان تلك الطابية ، هي قائمة على بقايا الحبيبين اللذين
ذهبت بهما فتيين يد الظلم ، ظلم الحاكم بن العزيز الفاطمي ، أو الحاكم
بأمر الله ، أو الحاكم بأمره كما كان يلقب نفسه !

وقد تأمرت ست الملك على أخيها مع أعدائه الكثيرين ، فعهدت
إلى صنيعها ابن دواس بقتله ، فطلع عليه بشرذمة من رجاله وأعوانه ،
وقتلوه شرّ قتلة ، وأخفوا جثته في القرافة . . .

وكان ذلك سنة ٤١١ للهجرة .

انطونيو والعرافة

بلغت فلول الجيش الروماني سواحل فينيقيا ، ونصبت مضاربها
 بأمر من قائدها على تلك الرمال الممتدة على شاطئ البحر الأبيض ،
 وتنفس الجنود الصعداء ظناً منهم أن العناء قد ولى ، وأن الشقاء سيتبعه
 هناء ، وأن إله الحرب سيتيسم لهم بعد أن ظلّ مدّة من الزمن معرضاً
 عنهم ، كالح الوجه في وجوههم ، ممسكاً يده عن أيديهم .
 وترك قائد الرومانيين - مارك انطونيو - جيشه على ساحل البحر ،
 واصطحب معه رفيقه ونجيّه « هيتيو » المصري ، وابتعد عن ضوضاء
 الخيام وضجة الجنود ، متجهاً إلى ذلك التواء البارز فوق الماء ، المرتفع
 صعداً في الفضاء ، المشرف على البحر والنهر معاً ، عند ذلك المصبّ
 الذي اجتازته من قبل جيوش الغزاة الفاتحين ، إما منتصرة هاتفة ، وإما
 مهزومة صامتة !

يعرف ذلك النهر اليوم بنهر الكلب . أما الأقدمون فانهم كانوا
يسمونه « ليقوس » أو نهر الذئب .

كان مارك انطونيوس قد اجتازه بجيشه قبل ذلك اليوم بشهور ،
قاصداً إلى الأقطار الآسيوية المتوسطة ، لاختضاع الشعوب والقبائل
الضاربة هناك ، وبسط سلطانه وسلطان صديقه وخليفته كليوباترة ،
ملكة مصر الجميلة الفتاة ، على الممالك والامارات التابعة للإمبراطورية
الرومانية الشرقية .

لكن السيثيين والماديين وحلفاءهم من سكان ارمينيا وفارس
وما بين النهرين ، قابلوا الرومانيين بالتمرد والعصيان ، ونارزولهم في
ميادين القتال ، وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، فعاد القائد الروماني الشاب
أدراجيه ، ويم شطر البحر الأبيض ، طالباً في سواحله وجباله نجاة
ومأمناً ، معللاً نفسه بوصول النجدة التي وعدته بها كليوباترة وتعهدت
بارسالها بحراً وعلى جناح السرعة .

كان عدد الذين اجتاحوا البلاد في طريقهم إلى الشرق ، بقيادة
انطونيوس ، أكثر من خمسين ألف فارس وراجل ، فلم يعد منهم إلى
الساحل الفينيقي غير عشرة آلاف جندي ، جميعهم خفاة عراة أنهمكهم
الجوع والمرض والعناء !
أولئك هم الأبطال والصناديد الذين تحولوا بعد الهزيمة إلى خيالات
وأشباح ، يخيفهم هزيم الرعود القاصفة في أعالي الجبال ، ويرعبهم صفير

الرياح في الغابات ، ويلقى الذعر في نفوسهم هدير البحر وتلاطم
الأمواج .



مارك أنطونيو

ذلك لأن تلك الأصوات جميعها تعيد إلى أذهانهم مشاهد الحرب
الدموية التي خاضوا غمارها وعادوا منها خاسرين ، وتذكّرهم بأولئك
« السيتيين » الذين صمدوا لهم في الشرق وردّوهم على أعقابهم ،
والذين يعيشون في سهول بلادهم على ظهور الجياد ، ويرشقون النبال
بمهارة لا تعدّ مهارة الرومانيين بجانبها شيئاً يذكر ، ويصيبون الهدف

بسهامهم دون أن ينظروا إليه !
 وبينما الجنود يتحدّثون عن الوقائع التي نجوا منها بمعجزة ، ويرفعون
 إلى آلتهم آيات الشكر والعبودية ، كان قائدهم يصعد الجبل على مهل ،
 ويضرب أخماساً بأسداس ، ويفكر في خطة يرسمها للخروج من المأزق
 الذي زجّ نفسه فيه .

ظلّ يمشى إلى الأمام غير حاسب للوقت حساباً ، تارة يسير على
 سفح الجبل ، وتارة يتسلق صخوره ، حتى أدركه التعب ، فجلس على
 الأرض ، ودعا رفيقه إلى الجلوس بجانبه ، ثم أخذ رأسه بين يديه ، ودفع
 إلى الوراء شعوره المسترسلة على كتفيه ، وجعل يحرق البصر في ذلك
 الخضم الممتد أمامه ، لعله يرى على صفحته ، هناك ، في الأفق البعيد ،
 مراكب كليوبطرة المصرية ، مسرعة إليه ، ناشرة أجنحتها السمراء ،
 حاملة تحية الحبية والنجدة المنتظرة !

لكن عينه لم تأخذ على سطح المياه ازرقاء ، غير الزبد الطافي
 عليها ، وخیالات بيضاء ، ينخدع بها النظر لحظة ، ثم يتضح له أنها
 طيور بحرية تسبح في الفضاء وتدأعب رءوس الأمواج !
 مرّت ساعات على مارك انطونيو وهو على هذه الحالة ، مكتئب
 النفس ، شارد الفكر ، تائه البصر . . .

لكنه صحا فجأة على صوت غراب ينطق فوق رأسه على شجيرة

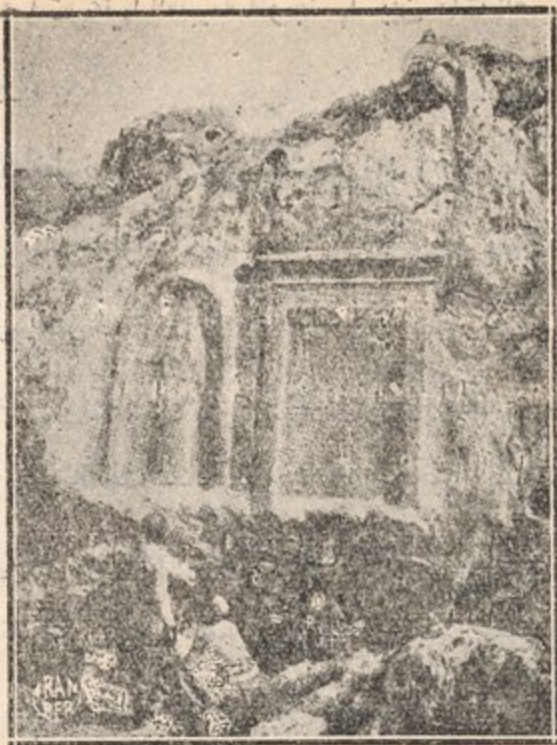
يابسة ، غضبت عليها الطبيعة فأوجدتها بين تلك الصخور القائمة
والحجارة الغبراء .

رفع مارك أنطونيو رأسه ، والتفت فلم يجد رفيقه جالساً بجانبه ، بل
راه واقفاً على بعد خطوات منه ، وقد ولاه ظهره ، واقترب من صخرة
بارزة ، وجعل ينظر في صفحتها ، جامداً ، لا يأتى بحركة .

نهض أنطونيو وسار إليه ، ثم وقف معه جنباً إلى جنب ، شاخص
البصر ، وقد جذبته تلك الصخرة وسحرته صفحتها الصامتة الناطقة !

هنا ، في هذا الوادى ، على ضفاف هذا النهر الصغير ، أمام هذا
الشاطئ الممتد على مرمى البصر ، فى سفح هذا الجبل الشاهق ، أمام
تلك الصخور الجرداء ، مرّت من قبل جيش أنطونيو جيوش ، وذات
كما ذاق جنوده لذة النصر ومرارة الفشل !

وأولئك القوّاد العظام والأبطال البواسل ، الذين دوّخوا العالم
وملأوه ضجيجاً ، قد ذهبوا إلى حيث لا بدّ للناس من الذهاب ،
وانتقلوا إلى عالم غير هذا العالم ، تاركين وراءهم من تلك الحوادث التى
أثاروها ، والحروب التى أضرموا ناراها ، والممالك التى اجتاحتها ديارها ،
والتيجان التى أسقطوها عن رؤوس أصحابها ووضعوها على رؤوسهم ،
والغزوات البعيدة التى قاموا بها - الذكري فقط . . . وأسماء منقوشة
على الصخور الصماء ، تنبئ الأحقاب من بعدهم بتلك الضوضاء التى
أثارها مرور الفاتحين فى هذا العالم !



الكتابات القديمة

المنقوشة على الصخور في نهر السكب ببلبنان

فعلى تلك الصخرة التي وقف أمامها أنطونيوس مع رفيقه المصري ، صامتين ، مأخوذين ، نقش رمسيس الثاني ، فرعون مصر العظيم ، رسمه ولقبه واسمه ، قبل ذلك اليوم بألف وخمسمائة سنة ، عند ماتدفقت جيوشه الجرارة على الشرق ، وأخضعت شعوبه لسلطان الدولة المصرية .

حنى القائد الروماني رأسه احتراماً وإجلالاً أمام رسم ذلك الفاتح العظيم ، وتسائل قائلاً :

— هل أترك في هذه البلاد ، بعد رحيلي ، ذكرى بطل منصور
أم قائد مهزوم ؟

وابتعد عن تلك الصخرة فاذا به أمام ثانية فتالته ، تحدثانه عن
سلمانصر وسنحاريب ملكي الأشوريين ، وقد نقشا اسميهما أيضاً على
تلك الصخور ، في ذلك الوعر الذي مرّت فيه جحافلهم ، قبل ذلك
اليوم بسبعة قرون !

فخني القائد الروماني رأسه من جديد أمام البطليين العظميين . . .
وقامت فيه الهواجس والذكريات . . .
ومرّت أمام عينيه تلك الصحائف التي خطها في سجلّ التاريخ ،
والأعمال التي قام بها ، والتي يجهل الحاتمة التي تسير إليها .
عادت به الذاكرة إلى ذلك اليوم الذي التقى فيه للمرة الأولى
بالمملكة الشابة الساحرة ، كليوباترة . . .

واليوم الذي شعر فيه بنيران الغرام تتأجج في صدره ، فأعرض
عن زوجته أوكتافيا ، أخت صديقه أوكتاف ، وألقى بنفسه بين
ذراعي ملكة مصر ، وأصبح لها عبداً خاضعاً ذليلاً . . .
واليوم الذي أعلن فيه على رؤوس الملأ أنه يطلق زوجته ، ويعيدها
إلى أهلها ، ويتخذ بدلا منها ، زوجة له ، تلك التي استولت على مشاعره ،
وسلبت لبه ، وقيدت قلبه بسلاسل الحب . . .

كايو بطرة ملكة مصر



واليوم الذى وقف فيه أمام الجموع المحتشدة فى ملهى الاسكندرية ،
ونادى بكليو بطرة مالكة على مصر وقبرص وأفريقيا وسوريا ،
بالاشتراك مع « قيصرون » ابنها من « يوليوس قيصر » ونادى فى
الوقت نفسه بولديه من كليو بطرة ملكين على أرمينيا ومادى وفينيقيا
وليبيا وكيايكيا

واليوم الذى أعلنت فيه روما أنها تطرد من حظيرتها ذلك الابن
العاق ، والقائد الخائن ، وتعتبره عدواً أشد خطراً عليها من كل عدو ،
وخصما يجب التخلص منه والقضاء عليه قبل كل خصم

عادت الذاكرة ببارك أنطونيو إلى جميع تلك الحوادث الجسام ،
فرأى نفسه وحيداً ، سائراً فى طريق مظلم ، تحف به المخاطر من كل
صوب ، ولا تبدو لعينيه بارقة أمل فى النصر الذى كان يرجوه
ويسعى إليه .

وبينما هو على تلك الحالة ، إذا بوقع أقدام يطرق أذنيه ، فالتفت
إلى مبعث ذلك الصوت ، ورأى امرأة تصعد الجبل نحوه ، متكئة على
عصاها ، تدفع الحصى أمامها بقدميها العاريتين .

وصلت إلى المكان الذى كان القائد الرومانى واقفاً فيه مع صديقه ،
فرفعت نظرها إليهما ، وبعد سكوت قصير أرسلت فى الفضاء قهقهة
عالية ، ردها الصدى فى الوادى من صخر إلى صخر

ثم قالت :

— أنطونيو ! . . . ما جاء بك إلى هذا المكان الموحش ؟
 لعلك تريد إزعاج الثعابين في أوكارها ، والنسور في أوكانها ، والشعالب
 في جحورها ، بعد أن أزعجت روما وأثرت الحروب في الشرق والغرب !
 نظر القائد مندهشاً إلى تلك المرأة التي لا يعرفها ، والتي نادته باسمه
 وخاطبته بتلك الجرأة الغريبة ، ولم يوجه إليها كلاماً ، بل التفت إلى
 رفيقه قائلاً :

— أتعرف هذه العجوز يا هيتيو ؟

فأجابه المصري :

— كلا . . . لا أعرفها !

لكن المرأة صاحت في وجهه :

— كيف لا تعرفني أيها النمام المنافق . . ؟ . أنسيت أم تناسيت
 ذلك العمل الشائن الذي أقدمت عليه ، عندما أردت أن تتخلص من
 وحيدى ، فوشيت به أمام هذا الرومانى فأمر بقتله ، وتم لك بتلك
 الوشاية الانتقام الذى سعت إليه ؟

تضاعفت دهشة أنطونيو ، ولم يدرك من كلام المرأة حقيقة الأمر ،
 فسألها :

— من هو ابنك يا امرأة ؟ ومن أنت ؟ ومن جاء بك إلى هنا ؟
 وأى لوم توجهين إلى صديقى ورفيقي هيتيو ؟

فأجابت العجوز :

— اصغ إلى يا أنطونيو : إننى لا أحمل موجدة عليك لأنك كنت
مخدوعاً ، والمخدوع لا يؤخذ على عمل يأتيه ، أو ذنب يقتترفه . لكننى
حائرة على هذا الذى تسميه صديقك ورفيقك . فاسمع ما أقصه عليك ،
واحكم بيننا : إن المرأة التى تراها أمامك الآن عرافة مصرية ، قضت
أربعين سنة ، متنقلة من هيكل إلى هيكل ، ومن معبد إلى معبد ، ومن
بلدة إلى بلدة ، فى مصر وفينيقيا . وقد ذاع صيتها فى طول البلاد
وعرضها ، وكان الناس يهرعون إليها من كل ناحية ، لى يستطلعوا
بواسطتها ما خفى عنهم من حوادث الماضى والحاضر ، وما يخبئه لهم
الغيب فى المستقبل . وكان لى ولد وحيد ، أحبه ، وأرعاه بعنايتى ،
وأرشده إلى السبل السوية ، وأبثه المبادئ القويمة ، وأفضى إليه بأسرار
العلوم التى ورثتها عن آبائى وأجدادى ، لى يصبح فى الغد عرافاً مثلى
ومثلهم ، ويسير على الطريق الذى ساروا عليه جميعاً . وقد حدث ذات
يوم أن علق ولدى بحب فتاة طاهرة نبيلة ، فبادلته الحب ، وتعاهد
الاثنان على الزواج . لكن خصماً لم يحسب له ولدى حساباً قام يزاحمه
فى حبه وينازعه حبيبته . وذلك الخصم هو هذا الرجل الذى يصحبك
يا أنطونيو . فانه كان يطمع فى أموال الفتاة وجاهاها . فجعل يكيد لولدى فى
الخفاء ، وينصب له الحبال ويدس له الدسائس . . حتى تم له ما أراد
من وقعة وضرر . . .

فقاطعها أنطونيو سائلا رفيقه :

— أحيي هذا يا هيتيو ؟

لم يجب الشاب . فقالت المرأة :

— إن سكوته أيها القائد لبرهان على صحة ما أقول . وهل في

استطاعته أن يكذبنى ، وأنا لا أفضى إليك إلا بالحقيقة ؟

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— حدث أن جاءك هذا الرجل ، وكان يقيم في قصرك

بالاسكندرية ، ويطلمعك على ما يجري في المجالس والأندية المصرية ،

وقال لك ان مؤامرة دنيئة تدبر في الخفاء لاغتيالك ، وان القائمين بها

جماعة من المصريين الذين اشتراهم أعداؤك بالمال والوعود .

— هذا صحيح . لكن أولئك الذين دبروا تلك المسكيدة لم

يقعوا في قبضتي !

— نعم . لأن المسكيدة التي أطلعك عليها هذا الخائن لم تكن

غير وليدة مخيلته . فقد ادعى ذلك الادعاء ، وكذب عليك وخدعك ،

وجعلك تعتقد أن شاباً من المقرّبين إلى الملكة ، القائمين بخدمتها ، على

اتفاق مع المتآمرين .

— هذا صحيح أيضاً . . . وقد أمرت بإعدام ذلك الشاب ،

فأعدم أُمّامى ، وعلى رأى من الشعب .

— ذلك الشهيد هو ولدى أيها القائد ! ولدى الذى كان يصيح عبثاً

أنه برىء ، وأنه لم يرتكب جرماً يؤاخذ عليه ، ويستحق من أجله
الاعدام . لكنك لم تصغ إليه ، ولم تعر كلامه اهتماماً ، لأن هيتيو هذا
جعلك تعتقد أيضاً أن ذلك الفقى المسكين كان يتطلع إلى أمنية أخرى ،
ويعمل النفس بتحقيقها .



كليو بطرة

فانتفض أنطونيو وقال :

— لا تذكرينى بذلك يا امرأة !

لكن العرافة ظلت مستطردة فى حديثها :

— جعلك هذا الرجل تعتقد أن ولدى يحب الملكة ، وأن الملكة
تعطف عليه ، وتبادلته الحب !

— هذا صحيح !

— لكنه كان كاذباً في دعواه . فان ولدى لم يحب غير تلك
الفتاة التي تعاهد معها على الزواج ، والتي أراد صديقك هذا أن ينتزعها
منه . وقد أعمى الغرام وأعمت الغيرة بصرك و بصيرتك ، فلم تتحقق
مما أفضى به إليك هذا الممام الواشى ، فأصدرت أمرك بقتل البريء
فقتل ! وقد غادرت البلاد منذ ذلك الوقت ، وحملتني قدمي إلى هذا
المكان ، حيث أقيم في مغارة مظلمة ، مع الوحوش والطيور والحشرات !
وإنني أجدها يا أنطونيو أقلّ قسوة من الانسان ، وأبعد نظراً ، وأكثر
عدلاً وإنصافاً ! والآن ، اسمع ما تقوله لك العرافة التي قتلت ولدها
انتقياداً لوشاية الخونة المنافقين : ان الملكة كليو بطرة ليست بالمرأة التي
تظن ! هي نطفة من نيران المسكر والشر ! هي رسول الأرواح الخبيثة
في هذا العالم . ! . لقد كانت شؤماً على القائد بومبيوس . . .
وشؤماً على قيصر العظيم . . . وشؤماً على أبويها . . . وشؤماً على
بلادها التي زجتها في غمرات الحروب . . . وستكون شؤماً عليك
يا أنطونيو ! اعلم أنك لن تعرف الهناء بعد الآن ، ولن تذوق الراحة ،
ولن يكلل النجاح مساعيك ، ولن يضحك النصر لأعلامك ، ولن
تري وطنك . ! . ستموت ميتة شنيعة ، منبوذاً من أهلك وأصدقائك

وأبناء قومك ووطنك ، ومن المرأة التي تحبها والتي ضحيت بكل شيء في سبيلها . ! . ! . إنني أتنبأ لك بالمصائب والويلات ، لأنك أبعدت عن نفسك بيدك ذلك الطالع الحسن ، الذي جعل المستقبل يمتسم لك في بادئ الأمر ، وانقادت لامرأة شريرة تنقاد من جبتها للملذات والشهوات ! قتل الوداع للوطن وللنصر وللنجاح وللراحة وللهدوء ! وقل الوداع للحياة يا مارك أنطونيو !

حاول القائد أن يسكت المرأة . لكن لسانه أبى أن يطيعه ، فعقد عن النطق فجأة ، وخيل إليه أن تلك العجوز الشمطاء ، التي أمطرته ذلك الوابل من التنبؤات السيئة ، إنما هي رسالة الآلهة ، بعثت بها « عشروت » الفينيقية من أعالي تلك الجبال أو من جوف ذلك اليم ، لكي تحذره من عاقبة الأعمال التي اندفع فيها ، لعله يستطيع أن يتخذ للغد حيطته ، ويعدّ للمستقبل عدته . . .

وقبل أن يلمّ أنطونيو شتات أفكاره الشاردة ، ويعيد إلى نفسه الهدوء ، صاحت به المرأة من جديد قائلة :

— ستكفر عن ذنوبك وآثامك يا أنطونيو ، وتموت دون أن يرتفع صوت بالبكاء عليك ، أو تذرف على قبرك دموع صديق ! أما رفيقك هذا فقد أزفت ساعته ، وسعى إلى حتفه بنفسه !

قالت هذا ، وانقضت على « هيتيو » المصري وضربته بخنجر كانت تحبّه في طيات ثوبها الخلق ، فسقط على الأرض ، وتفجرت

الدماء من صدره ، وقد اخترقه الخنجر ومزق القلب وقطع العروق . ! .
 وهدأت ثورة العرافة ، فألقت من يدها السلاح المملطخ بالدم ،
 والتفتت إلى أنطونيوس الذي لم يتحرك للدفاع عن رفيقه ، وقالت :
 — ما ظننت في وقت من الأوقات أن الآلهة تسهر علىّ وتخدم
 انتقامي إلى هذا الحد . وما علمت أنها ستقود خطواتك إلى هذا
 المكان ، ومعك الرجل الذي طالما عللت النفس بقتله . ! . ان المجرم
 الأثيم يا أنطونيوس لا بد أن يلاقى العقاب على ما اقترفت يده . . .
 الوداع أيها القائد العاشق الأعمى . ! . تذكر دائماً ما قالته لك العرافة
 المصرية في جبال فينيقيا . . . واترك جثة هذا الخائن في مكانها ، فانها
 لوليمة فاخرة أقيمها الليلة للضباع والذئاب !

وتناولت العرافة عصاها ، وردت على وجهها طرف رداؤها ، وراحت
 في سبيلها ، تدوس الحصا بقدميها العاريتين ، صاعدة في الجبل بين
 الصخور ، كأنه لم يحدث حادث ولم تقع مأساة . . .
 وظل مارك أنطونيوس يتبعها بالنظر ، إلى أن توارت وراء الصخور . . .
 فعاد القائد الروماني وحده إلى معسكر الجند ، وقد تقطع جبينه ،
 واكفهر وجهه ، وبدا عليه التعب . . .



تحققت نبوءة العرافة المصرية ، فقد منى مارك أنطونيوس بالخسائر
 المتوالية ، وانهزم جنوده في كل مكان ، وانفضّ من حوله الأصدقاء

والأنصار ، ولم يجد عزاء عما حلَّ به من كوارث إلا في أحضان الموت...

أراد أن ينتحر فخائته الشجاعة !

وأراد أن يلقي الموت فتحاشاه الموت في الميادين !

لكن صديقاً أشفق عليه فطعنه في صدره الطعنة القاضية...

فمات بعيداً عن كليو بطرة ، وهو الذي كان يقول لها : « لست

أرغب بعد الآن إلا في أمنية واحدة ، وهي أن أموت بين ذراعيك

يا حبيبتي ! »

وماتت كليو بطرة أيضاً بعيدة عنه ، من لسعة الحية المسمومة ،

وهي التي كانت تقول له : « لست أرغب بعد الآن إلا في أمنية واحدة ،

وهي أن نعيش طويلاً ، وأن نموت بعد ذلك ونحن في فراشنا ،

متعانقين دون أن نشعر بعذاب ونحسّ بألم ! »

وكان ذلك في سنة ٣٠ قبل الميلاد . . .



٧

زينب وعبد الملك

ابتعدت السفينة خلصة عن الشواطئ المصرية ، يسترها الظلام
الحالك ، ومخرت المياه متجهة إلى عرض البحر ، حاملة مستقبل فرنسا
وآمال نابوليون بوناپرت .

نادى القائد ربان السفينة وقال له :

— لقد وضعت حياتي ومستقبل فرنسا بين يديك ، فاما أن
تنسلّ بسفينتك بين مراكب الانجليز التي تجوب البحار في طلبنا ،
لكي تقطع علينا خط الرجعة إلى بلادنا ، فتقدم للوطن خدمة يسجلها
لك التاريخ على صفحاته . وإما أن تقع بين أيديهم ، فتقضي علينا
وعلى الوطن معاً !

فبسط الربان ذراعه مقسماً وقال :

— سأفلس منهم يا جنرال ، أقسم لك بشرفي وأولادي !

— شكراً لك . ! .

وصالحه بونابرت ، ثم انكأ على حاجز السفينة ، وشخص ببصره إلى النجم الساطع في الفضاء اللانهائي ، ذلك النجم الذي كان الفاتح يسميه نجمة ، والذي اتخذته رمزاً لأمانيه ومطامعه !



مرت ثلاثة أيام والسفينة تفلت كل يوم بأعجوبة من المراكب الانجليزية ، فنادى القائد ربان السفينة ثانية ، في صباح اليوم الرابع ، وهنأه على براعته ومهارته ، وأكد له من جديد أنه يثق به ويضع حياته بين يديه .

وبينما بونابرت يخاطب الربان ، إذا فضجة تتصاعد من جوف السفينة ، فانتفض القائد وسأل ما الخبر ؟ وأسرع الربان إلى مصدر الجلبة ، ثم عاد يحيط به بحارة السفينة ، ومعهم شاب غريب ، أوثقت يده وراء ظهره ، والدم يسيل بغزارة من جرح في خده الأيمن .
وخاطب الربان القائد العام قائلاً :

— سيدى الجنرال . قبض البحارة على هذا الرجل متلبساً بجريمة شنعاء . فقد وثب على الجندي « فورتين » من رجال الحرس ، وطعنه بخنجره أربع طعنات في صدره وكتفه ، فسقط المسكين صريعاً ، وأسرع البحارة إلى الاحاطة بالمجرم الأثيم ، الذي حاول أن يقاوم مهدداً بالقتل كل من يقترب منه . لكنهم تمكنوا من انتزاع الخنجر من

يده ، فأصيب بجرح فى خده أثناء العراك ، وأظنه لا يفهم لغتنا ،
ويتكلم العربية فقط .

اقترب القائد من الشاب الذى كان هادئاً ساكناً ، كمن يشعر
بارتياح وطمأنينة ، بعد القيام بعمل كان يظنه واجباً عليه ، وخاطبه
بالفرنسية فلم يجب ، فأمر بونابرت باحضار مترجم من رجال الحاشية ،
ليعلم حقيقة الأمر ، وليكشف الستار عن سر ذلك القاتل الغريب .



جاء المترجم وألقى أسئلته على الرجل ، فلم يمانع فى الاجابة :

- ما اسمك ؟
- عبد الملك شبيب .
- من أى بلاد أنت ؟
- من مدينة غزة . لكننى استوطنت القاهرة منذ أربع سنوات .
- وما جاء بك إلى هنا ؟
- الأخذ بالتأثر !
- ممن ؟
- من النذل الذى قتلته !
- وهل أساء إليك هذا الرجل ؟
- لو لم يسيء إلىّ لما تعقبته حتى قتلته !
- وماذا فعل ؟

فسكت الرجل واعتزته رعشة شديدة . ثم نظر إلى الأرض
واغرورت عيناه بالدموع . لكن بونابرت أشار إلى المترجم بالاستمرار
في السؤال :

— قل لنا ماذا فعل ذلك الجندي حتى استبحت لنفسك حق
الاقتصاص منه ؟



الجنرال كليبر الفرنسي
الذي قتله سليمان الحلبي

فرفع الرجل رأسه ، ونظر إلى من كانوا يحيطون به من قواد
وجنود ، فقرأ على وجوههم ما تضره له قلوبهم من شر و بغض وكره ،

ثم ارتسمت على شفثيه ابتسامة مرّة وقال :

— لو ارتكب رجل منا نحو أحدكم جريمة كالتي ارتكبتها ذلك
اللعين نحوى ، لا تنتقم من ابن وطنكم من البلاد كلها ، ولأمطرتم علينا
وابل رصاصكم وقنابلكم ، أو أعملتم فينا السيوف والرماح ، واستبحتم
لأنفسكم انتقاماً أروع من الانتقام الذى نفذته فى غريمى ! إني عالم
بمصرى الذى ينتظرنى ، ولكن لا بدّ لى قبل أن أموت من صبّ
لعناتى على هؤلاء الأقوام . . .

فقاطعه المترجم ساخطاً :

— لا تسترسل فى غضبك يا رجل ، واكتف بذكر الدواعى
التي دفعتك إلى القتل .

— حسناً . . . كنت أسكن منزلاً صغيراً ، على مقربة من
تلّ العقارب فى مصر ، مع أختى ، وهى أصغر منى سنّاً . وكنت أتغيب
فى النهار ، وأعود إلى البيت بعد صلاة الغروب . ففى ذات ليلة عدت إلى
منزلى ، فوجدت فيه الجندى الذى قتلته . . . ولا تسل عن الجرم الذى
اقترفه . . . فانه فى نظر أبناء قومى ، أقطع جرم يرتكبه إنسان . . .
يا ليتته ترك أختى جثة هامدة . . . لسكنت إذن طرحتها على قمة التل
طعمة للجوارح ، بدلاً من الاحتفاظ بها ملطخة بالعار ، مدنسة بملامسة
ذلك الحيوان النجس . . . ! . نعم . . . حاولت أن أقبض على عنقه ،

وأقتص منه في ذلك المساء المشؤوم .! لكن الجبان فرّ هارباً، وأفلت
من يدي .

— وكيف علمت بمقرّه بعد ذلك ؟

— تركت أعمالي ، ووقفت نفسي منذ ذلك اليوم مراقباً للجنود
في روحاتهم وغدواتهم ، وأقسمت أمام الله وأمام أختي أن أنتقم من
الفاسق الأثيم ، ولو بذلت حياتي في سبيل ذلك الانتقام .! . أما طريق
الوصول إليه ، وصعودي خفية إلى هذه السفينة ، فهذا ما لا شأن لكم
به . . . لقد تمّ لي ما أردت ، فأخذت بثأري ، وغسلت بدم المجرم
العار الذي ألحقه بي وبأسرتي .! . والآن ، ليفعل بي قائدكم ما يريد ،
فلا يهمني شيء ، ولا أطلب منكم رحمة ولا شفقة . . . القاتل يقتل . . .
لا أجهل ذلك . . . وحياتي بين أيديكم ، فهي لكم . . . خذوها
إذا شئتم !



في صباح يوم الأربعاء ١٨ يونيو سنة ١٨٠٠ ، أي في التاسع
والعشرين من شهر بريريال سنة ٨ للجمهورية الفرنسية — الموافق
للسادس والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٥ هجرية ، أعدم عبد الملك
شهيب ، رمياً بالرصاص ، في ثغر طولون الفرنسي ، بتهمة القتل بتعمد . . .
وفي نفس ذلك اليوم ، نفذ حكم الإعدام في كل من سليمان الحلبي ،
قاتل الجنرال كليبر ، قائد القوات الفرنسية في مصر ، وشركائه في التآمر

على اغتيال ذلك القائد ، وهم : عبد القادر الغزى ، ومحمد الغزى ،
وعبد الله الغزى ، والسيد احمد الوالى . .



الشيخ سليمان الفيومى
وقد لعب دورا هاما فى عهد الاحتلال الفرنسى فى مصر

ولم يكن المتهم الأخير - السيد احمد الوالى - إلا ابن خال الشاب
عبد الملك شبيب . فكأن الأقدار شاءت أن يعدم الاثنان فى يوم واحد ،
وأن تكون النهمة الموجهة إليهما واحدة ، وأن ينفذ الحكم فى السيد احمد
الوالى فى تلّ العقارب . . .

فهناك . فوق ذلك التلّ المشرف على منزل عبد الملك وأخته المسكينة ،

سقط رأس أحمد الوالى تحت سيف الجلاذ ، وهناك أحرقت جثته ،
بينما كان ابن عمته عبد الملك يعدم رمياً بالرصاص ، فى مدينة طولون ...

*
* *

وظلت زينب — أخت عبد الملك وفريسة الجندى فورتين —
مقيمة فى ذلك المنزل الملعون ، تندب حظها ، وتذرف الدموع السخينة
على مقتل ابن خالها ، وتعلل النفس ببقاء أخيها عائداً من رحلته ،
حاملاً إليها خبر انتقامه من مغتصب عذافها وسالب شرفها .

انتظرت طويلاً ولم يعد ذلك الأخ المحبوب ، ففسرّب القنوط
إلى نفسها ، وفكرت فى الانتحار تخلصاً من حياتها التعسة .

وبينما هى على هذه الحالة ، تتقاذفها الهواجس والشجون ، ينعشها
الأمل تارة ، ويستولى عليها اليأس طوراً ، إذا بجندى فرنسى يقترب
من المنزل ، وبصحبه ثلاثة رجال عرفت بينهم زينب الشيخ سليمان
الفيومى صديق أخيها عبد الملك .

خفق قلب الفتاة وشعرّت أن القادمين يحملون إليها خبراً ،
فأسرعت إليهم ، وسألت الرجل الذى عرفت فيه صديق أخيها :

— عمن تبحثون ؟

— عنك يا زينب ...

— ما وراءكم ؟

— ان هذا الجندى مكلف بإبلاغك خبراً مؤلماً ... ان أخاك ...

— عبد الملك . . ؟

— عبد الملك . . . أعدم في فرنسا !

فصرخت الفتاة صرخة مفجعة ، وسقطت على الأرض مغشياً عليها . . .



وبعد يومين ، عثروا في تلّ العقارب ، وفي نفس المكان الذي
أحرق فيه أحمد الوالى ، على جثة فتاة ملقاة في بقعة من الدم المتجمّد .
وتبين من التحقيق أنها قطعت عرقاً في مقدمة ذراعها ، فسالت دماؤها ،
وفاضت روحها . . .

ودفنت زينب في ذلك المنزل ، الذى شهد عارها ، وردّدت
جدرانها صدى زفراتها ، وضمت أرضه رفاتها !



... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار



... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار
 ... و این کار از جهت اینست که در این کار

٨

من أبي الهول الى قوس النصر

— أماه ! .. أماه ! ..

— تشجع يا ولدى . فالموت كأس كلِّ إنسان شاربه ، ان عاجلاً وان آجلاً ، فتذرّع بالصبر ، وتجلد أمام الشدائد . أما كانت أمك ، في حياتها المضطربة ، مثلاً للتصبر والتجلد ؟

— ولكن أبي ؟ .. أين أبي ؟ .. من هو أبي ؟ أما آن الأوان لتمزيق ذلك الستر الذى يحجب عنى حقيقة أمرك ، ولمكاشفتى بالسرِّ المدفون فى أعماق صدرك ؟ لقد طالما وعدتني ...

— وعدتك ... وسأبرّ بوعدى ... اسمع ...

نهضت « عائشة » من فراشها ، وغالبت الألم ، وضمت ابنها « محمود » إلى صدرها ، وقصت عليه قصتها :

— ان الدم الذى يجرى فى عروقك يا بنى هو مزيج من الدم
المصرى والدم الفرنسى . . .

— ربه ! . .

— لا تقاطعنى يا محمود ، ودعنى أقصّ عليك الفاجعة إلى النهاية ،
ثم احكم بما تشاء ، وافعل ما يمليه عليك ضميرك ووجدانك . . .
تعلم جيداً أن كثيرين من الضباط والجنود الفرنسيين ، الذين
رافقوا القائد بونابرت إلى مصر ، وأقاموا فيها حكماً وأسياداً ، قد
حملتهم مصلحتهم الخاصة ومصلحة بلادهم على التظاهر باعتناق الاسلام ،
لكى يكتسبوا بذلك عطف الشعب ، ويستميلوه إليهم ، ويحولوا دون
نشوب ثورة تطردهم خارج مصر ، وتعيد هذه البلاد إلى أبنائها .

— اعلم ذلك ، واعلم أيضاً أن كثيرين من المصريين قد أخذوا فى
حبائهم ، واعتقدوا فيهم الاخلاص فى اعتناق الاسلام ، فألقوا بيناتهم
بين أحضان أولئك الغزاة ، وكانت النتيجة . . .

— كانت النتيجة أن معظم من تظاهروا بالاسلام عادوا إلى
وطنهم مع فلول الجيش الفرنسى كأنهم لم يرتبطوا برابطة ، ولم يقطعوا
عهداً مع أحد فى هذه الديار ، فتركوا نساءهم ، وتركوا معهم ثمرات
بطونهم ، وكانت أمك يا بنى إحدى تلك الضحايا البريئات !

— أمه ! . . .

— نعم يا محمود . أنت ابن الضابط الفرنسى « مرسيه » ، الذى

اعتنق الاسلام وصاحب أبى « ابراهيم بك حامد » فرضى ذلك الأب
المسكين المغرور، أن تصير ابنته زوجة للضابط « محمد مرسية » فأذعنت
للأمر ، وتزوجت ، وبعد سنة من ذلك اليوم المشؤم ، رأيت
النور يا بنى !

— وبعد ؟

— وبعد . . . دعنى أمرّ بسرعة على الحوادث الحزنة المبكية التى
توالت على : مات جدك إبراهيم بك ، ودارت الدائرة على جيش
الفرنسيين ، فرحلوا عن البلاد عائدين إلى أوطانهم ، وتركنى أبوك
أندب حظى ، وأغسل وجهك الصغير بدموعى !

— يا للفضاعة ! . . لكن ذلك الخائن . . ؟

— إنه أبوك يا محمود !

— سأبحث عنه وأنتقم منه . . .

— لا . ابحث عنه إذا شئت ، ولكن ليس للانتقام منه . لو
عثرت عليه أنا لأنزلت به العقاب الذى يستحقه . أما أنت فواجبك
يقضى عليك بغير ذلك . المرأة تنتقم من الرجل الذى أغراها وخان عهدها .
أما الابن فلا ينتقم من أبيه . لقد عشت شقية تعسة ، وتجرّعت
كؤوس البؤس حتى الثمالة ، لكننى سعيدة بك يا ولدى . لقد بلغت
السادسة عشرة من سنك ، وهأنا الآن ألفظ نفسى الأخير بين
ذراعيك ، ملقبة رأسى على كتفك ، وقد أنستنى هذه الساعة الأخيرة

جميع ما عانيت في حياتي من آلام مبرحة . لتكن السعادة ملازمة لك
يا بني بقدر ما كانت معرضة عن أمك !
— أماه ! .. أماه ! ..



قضت عائشة نحبها ...

أما محمود ، فسافر إلى باريس عاصمة الفرنسيين ، إذ قيل له ان
مرسياه لا يزال ضابطاً في جيش الملك ، بعد أن خدم مدة طويلة في
جيش الامبراطور .

تقرّب هناك إلى المعلم يعقوب القبطي - أو الجنرال يعقوب كما كانوا
يسمونّه - الذي رافق الفرنسيين إلى وطنهم ، وعلم بعد البحث أن أباه
عين ملحقاً في سفارة فرنسا بعاصمة النمسا ، فسافر إليها ...

لكنّ أباه كان قد رحل عن فينا عائداً إلى باريس ، بينما كان
محمود في طريقه إلى النمسا !

ظلّ الشاب التائه أسبوعين في فينا ، وقصّ قصته على الدوق
دي رشتاد « النسر الصغير » ابن نابوليون الأول ، المنفي عن وطنه ...
كان الدوق الشاب بعيداً عن أبيه ، لا يستطيع أن يذهب إليه ،
فحسد محموداً المصري على حريته . وقد قال له مرّة :

— إنني أقم هنا في قصر جدّي ، وفي كنف والدتي . لكنني
أريد أن أرى أبي ، وأن أذرف دموعاً واحدة وأنا ملتجئ إلى صدره !

هذا ما ستحصل عليه أيها الغريب أما أنا ، فسأبقى في سجن المذهب ،
في قصر شنبرون !



النسر الصغير

ابن الامبراطور نابليون

فبكى محمود . وطبع قبلة على يد الأمير المريض !



عاد إلى باريس . . . وهناك أخبره المعلم يعقوب القبطي أن الضابط

مرسيه سافر إلى تركيا في مهمة سياسية ، وطلب إليه أن يقيم معه إلى أن يعود أبوه .

قبل الشاب ضيافة موطنه . . .

ومرّت السنون . . .

١٩ يوليو سنة ١٨٣٦ . . .

كان ذلك اليوم يوماً مشهوداً في تاريخ فرنسا ، فتألبت الجماهير في الشوارع والميادين ، للاشتراك في الاحتفال برفع الستار عن « قوس النصر » ، الذي أمر نابليون الأول بتشييده سنة ١٨٠٦ ، والذي لم يتم بناؤه إلا في سنة ١٨٣٦ .

خرج محمود مع من خرجوا لمشاهدة النصب العظيم ، ووقف أمام ذلك القوس ، فهاجت في صدره ذكريات الماضي ، وتصور أمام عينيه أبا الهول العظيم ، الرابض في صحراء الجيزة ، وتخيل ماقصه عليه موطنه في مصر من المعارك الهائلة التي دارت رحاها في سفح الأهرام ، وتذكر أمه المسكينة ، التي خدعها ذلك الجندي الظافر ، ثم هجرها ، فانهمرت الدموع غزيرة من عيني محمود ، وسمعه الناس يتمم كلمات لم يفهمها أحد . . . ذلك لأن الشاب كان يخاطب نفسه . ويخاطبها بلغة بلاده وعشيرته !

— لقد ماتت أمي ودفنت معها حزنها . ومات يعقوب وكان صديقي الوحيد في هذه الديار . ومات الدوق دي رشتاد منفيًا وكان يعطف عليّ . أما أبي . . . أبي . . . فكيف السبيل إلى الوصول إليه ؟

ولو صلت إليه فهل يحنّ قلبه علىّ ويضمني إلى صدره ؟ .. لا لا .
إنه سينبذني كما نبذ أمي . ! .

وفي وسط ذلك الازدحام الشديد، والهتاف المتواصل ، ودوى الطبول ،
وأصوات الأبواق ، ارتفع صراخ من نوع آخر ، صراخ رعب ودهشة !
فأسرع الجنود المحافظون على النظام إلى موطن الجلبة ، فرأوا جماعة
من المتفرجين يحيطون بجثة هامدة ، وقد سالت الدماء من جرح بليغ في
الصدر ، وتجمدت على نصل الخنجر الذي لجأ إليه محمود للقضاء على
نفسه . . .

فحملوا جثته . . .

وظلّ القوم في هرج ومرج . .



والماء في الدنيا من الماء العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد



والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

والسكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد
والساكن في الدنيا من الدنيا العذب والبارد

على هيكل عشتروت

« أواه ! .. أواه ! .. أواه ! .. »

نهض الكاهن الأعظم « آرام » من فراشه مذعوراً على صوت ابنته ، وأسرع مهولاً إلى حجرتها ، فإذا به أمام الفتاة وقد ألقت بنفسها على الأرض ، وجعلت تقبل بلاط الحجر أمام تمثال عشتروت ، وتذرف الدموع وتقرع صدرها بيدها صائحة بأعلى صوتها :

— أواه . ! . أواه . ! . أواه . ! .

أخذ الكاهن ابنته المحبوبة بين ذراعيه ، وغمر رأسها بالقبلات ، وهي تصيح مرتعشة :

— رحماك يارب الحب والانتقام ! سأصنع ما تأمريني به !
جعل الكاهن يهدى روع الفتاة سائلاً عما أصابها ، مستفهماً عن سبب ذعرها .

فقال الفتاة « زامورات » لأبيها :

— أبتاه ! لقد أعددتني زوجة لابن أخيك « حارام » النوتى ، ومنذ الساعة التى اتخذت فيها قرارك هذا لم يغمض لى جفن ولم أذق راحة ولم أهنأ بعيش ! أبتاه ! إننى لا أحب ابن عمى حارام ، ولا أريده زوجاً لى ، بل إن الآلهة التى نعبدها والتى تقوم أنت بخدمتها ، لن ترضى بهذا الزواج ولن تقرّه !

سكت الفتاة لحظة ، وتنفست طويلاً ، ظناً منها أن الكاهن سيغضب وينزل بها نقمته . لكنه ظل صامتاً ينظر إليها بخنات ، فاستطردت قائلة :

— إنك خادم معبد عشتروت ورئيس كهنة فينيقيا فى معابد بيلوس وهيا كلها ، وقد علمتنى أن أستشير ربتنا القديرة الجبارة فى كل أزمة نفسية تساورنى ، وكل ملة تحدى بى !
وهنا قاطعها الكاهن قائلاً :

— نعم يا ابنتى ! فإن الربة عشتروت خير مرشد نفع إليه !
— أبتاه ! . . لقد عملت دائماً بوصيتك ، واتبعت نصائحك وإرشاداتك . وها قد مضت على ثلاثة أيام بلياليها ، وأنا أرفع أكف الضراعة لعشتروت ، لكى يهبط على وحيها ، وتنزل على إرادتها ، وتغمرنى نعمتها ورحمتها !

فقاطع الكاهن ابنته ثانية سائلاً :

— وهل أجابتك يا ابنتي ؟

— نعم. تجلت لى الربة المعبودة الليلة ، فى هالة من النور، تحف بها الكاهنات العذارى ، وسمعت صوتها يهيب بى قائلا : « زامورات ، لن تتخذى لك من أبناء قومك بعلا ، فاما أن تكونى للاسكندر المقدونى ، وإما أن تقدمى طهرى وعفافك ذبيحة على هيكل فى صيدون الظافرة ! »

سكتت الفتاة ثانية ، ونظرت إلى أبيها ، فاذا به صامت لا ينبس !
فقال زامورات :

— هذا ما قالته لى الربة عشتروت الليلة يا أبى . فهل تريدنى أن أكون لارادة عشتروت عاصية ، ومن واجب الطاعة لآلهتنا العظام مارقة !

أطرق الكاهن الأعظم لحظة ، ثم رفع رأسه وطبع قبلة حنان على جبين ابنته ، وقال :

— كلا يا ابنتى ! لن أريدك كما تقولين . فأنت منذ هذه اللحظة ملك للآلهة دون الناس. ادخلى المعبد ولا تخرجى منه إلا للقاء الاسكندر المقدونى ، الذى اختارته لك عشتروت زوجاً وسيداً . !

فقبلت الفتاة يد أبيها ، ثم استطردت قائلة :

— وقد ختمت الربة حديثها بهذه الكلمات يا أبى : « ستظلين فى هيكل مقيمة ، إلى أن يأتىك الفاتح ويفك أسرك ، أو تموتى فى اليوم

الذى يقع فيه نظرك على جثة الاسكندر ، إذا قدرت الآلهة رحيله قبلك
عن هذا العالم !

*
* *

سنة ٣٣٢ قبل الميلاد . . .

عاد الاسكندر ، الفاتح المقدوني العظيم ، من ديار الهند إلى أرض
مادى وفارس ، بعد أن أخضع لسلطانه الشعوب ، وشيد اثني عشر
هيكلا لآلهة اليونانيين ، وافتتح بحد السيف الممالك ، وانتزع التيجان
عن هامات أصحابها . . .

وقرر أن يستريح الجيش الغازي سنة كاملة من التعب والعناء
والحروب ، وجعل يرسم مع قواده المحنكين وأنصاره البواسل ، خطة
العمل المقبل ، لاختضاع البقية الباقية من الشرق ، الذى كان يريد ملوكا
له دون سواه من الملوك والغزاة .

لكن العدو الوحيد الذى لم يكن فى الحسبان ، والذى لم يكن فى
استطاعة الفاتح العظيم قهره - المرض - هاجم الاسكندر وطرحه على
فراشه ضعيفاً ، لا يقوى على صده ، ولا يعرف إلى دفعه سبيلا .
وبعد اثني عشر يوماً ، قضى الاسكندر نحبه ، بين أقطاب جيشه
وأطبائه وحكائه ومستشاريه ، وقد استولى عليهم الذهول ، وانقضّ عليهم
المصاب الفادح انقضا الصاعقة .

وكان ذلك فى شهر يونيه من ذلك العام المشؤم !

مات الاسكندر المقدوني في الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان جالساً على عرش أبيه فليبوس منذ ثلاث عشرة سنة .

وقبل أن تفارق روحه الجسد ، صاعدة إلى عالم الخلود ومقر الآلهة ، جمع حوله الأخصاء والمقرين ، وأفضى إليهم بارادته الأخيرة :

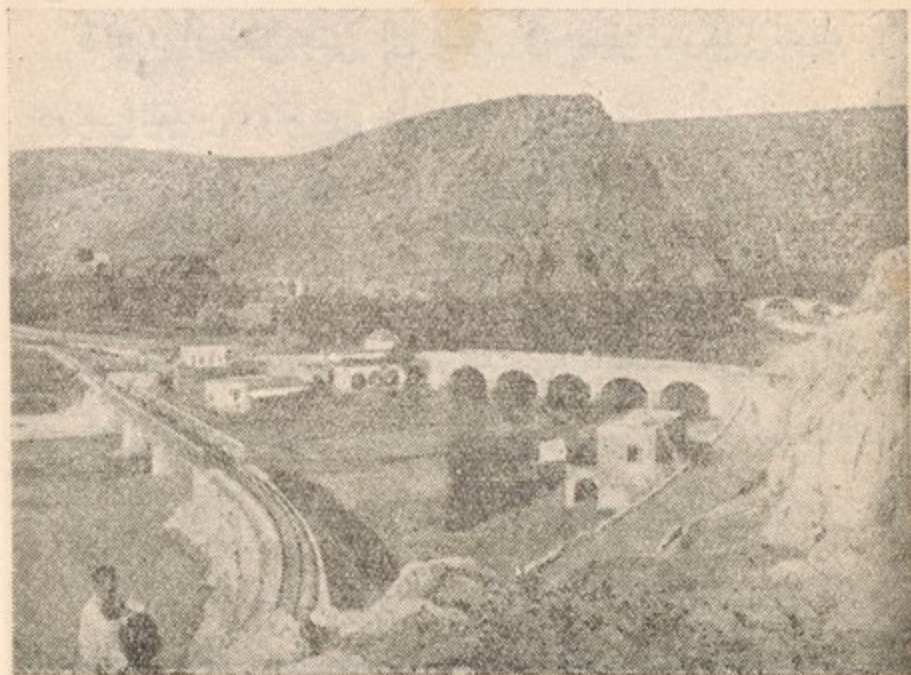
« أريد أن تنقل جثتي إلى بيبالوس في فينيقيا ، وتغسل بماء نهر ادونيس المقدس ، وتعرض على أنظار الناس عشرة أيام في هياكل صيدون ، ثم تنقل إلى مصر وتدفن في واحة آمون ، بجانب الإله ابني ! »



قضى أرباب الفنون والصنائع سنتين في أعداد النواوس والمركبة التي تنقله إلى مقره الأخير ، وتحرك الموكب في سنة ٣٣٤ قبل الميلاد ، سائراً من بابل إلى مصر ، بطريق فينيقيا وبلاد موآب .

وكان يوماً مشهوداً ، ذلك اليوم الذي ارتفعت فيه أصوات الأبواق في فينيقيا ، تنبئ بأن جثة الاسكندر ، قاهر دارا وفتح الهند ، قد اجتازت تخوم البلاد في مركبة يحرها أربعة وسبعون من الثيران القوية ! وتدفق السكان من الثغور والقرى والجبال ، لرؤية المشهد الرائع ، حاملين غصون الأرز مبللة بمياه نهري ادونيس وليقوس ، وجراراً مملوءة بتلك المياه ، وقد أخذت من منبع النهرين في بطن الجبل ، وأقاموا في طريقهم أعمدة من الصخور الصماء على قمم لبنان دلالة على حزنهم ! واجتازت المركبة الجبل في ظلال الأرز ، وغسلت الجثة في مياه النهر

المقدس ، وعرضت على الأنظار في هياكل عشروت !
 وكان بطليموس ملك مصر قد غادر وطنه على رأس جيش جرار ،
 لتسلم جثة الفاتح العظيم والسير بها إلى مدينة الاسكندر : الاسكندرية !



نهر السكاب بلبنان كما يبدو اليوم
 وهو النهر الذي كان الأقدمون يسمونه « ليقوس »

وخرج كهنة الفينيقيين للقاء الموكب الحافل ، فتجمعوا في مدينة صور ،
 يحيط بهم عظماء البلاد وقوادها وزعمائها ويتبعهم الشعب الحزين الباكي .
 وهجرت الكاهنات العذارى معابد تموز وعشروت وملكات .

وأسرعن مع الكهنة إلى تحية رفات الاسكندر . . .
وكانت زامورات بينهن ، تذرف الدموع وتصد الزفرات !

*
* *

كان أمرها قد اشتهر بين الناس ، فأطلق عليها أبوها الكاهن الأعظم اسم « حبيبة الاسكندر » فعرفت بهذه التسمية في المعابد وخارجها .
ظلت الفتاة خاضعة لإرادة عشروت ، ربة الحب والانتقام ، التي حرمت عليها الزواج وأمرتها بان تحتفظ بنفسها للاسكندر المقدوني دون سواء من الرجال ، وألا تتخذ لها من بين أبناء قومها بعلا ، وأن تموت في اليوم الذي يرحل فيه الفاتح عن هذا العالم ، إذا قدرت الآلهة القوية الجبارة ذلك !

وكانت زامورات في أثناء تلك المدة تصلى للآلهة ، وتحرق البخور على هيكل عشروت ، وتخرج مع رفيقاتها الكاهنات العذارى إلى سفوح الجبال ، لجنى الأثمار ، وقطف الأزهار ، وجمع الرياحين لادونيس أو تموز كما كان الفينيقيون يسمونه ، في الشهر الذي لا يزال القوم إلى الآن يطلقون عليه اسم معبود بيبولس « تموز » وهو الشهر السابع من السنة !

وكانت الفتاة ، قبل أن تجنح إلى فراشها وتلقى بنفسها في أحضان إلهة الظلام ، ترقع على ركبتها ، وترقع صدرها بيديها ، أمام تمثال الربة

عشروت الرهيبية ، طالبة منها أن تقرب اليوم الذى تصبح فيه الفتاة
زوجة للاسكندر، أو رهينة الموت على هيكल الالهة فى صيدون الظافرة !
وأجابتها عشروت إلى سؤالها !

فها إن الاسكندر قد رحل إلى جوار أبيه آمون ، ونقلت جثته لكى
تدفن فى أرض الفراعنة .

إذن ، ينبغى للفتاة ، ابنة الكاهن الأعظم آرام ، حبيبة الاسكندر ،
أن تلحق بحبيبها الذى لم يعرفها ، عملاً بإرادة الالهة وتنفيذاً لمشيئتها . . .
وذلك فى اليوم الذى يقع فيه نظرها على جثة الفاتح ، العائد من
فتوحاته نعش ذهبى تجرّه الثيران !



قال الكاهن الأعظم آرام لابنته :
— بنيتى ! أواثقة أنت من ذلك ؟ أأتلك هى إرادة عشروت التى
لامردت لأمرها ؟ أم أنك واهمة ، فريسة حلم مزعج ووهم طائش ؟
فأجابت زامورات :

— أبتاه . ! . إن أمر الربة المعبودة كان واضحاً جلياً . وكانت
إرادتها صريحة قاطعة . فالوداع إذن ! لقد وقع نظرى على جثة الاسكندر ،
ورأيت النعش الذهبى الذى يضمّ رفاته الطاهرة ! تترع بالشجاعة
والصبر يا أبى ، ولا تترك للوهن والشك إلى نفسك منفذاً . أأتكون
كاهن عشروت الأعظم ، وتترد فى تنفيذ رغبة عشروت ؟

قالت الفتاة ذلك ، وأخذت ذراع أبيها بيدها ، وصعدت معه درجات الهيكل ، حيث تقيم عشروت وراء الحجب والمآزر المقدسة ... وأشارت إلى الخنجر الذهبي ، المعدّ لنحر الذبائح على هيكل الآلهة . . .

لكن الكاهن تردد وتراجع ، فما كان من الفتاة إلا أن تناولت بيدها ذلك الخنجر الذهبي ، وأمسكت به من نصله ، وقدمت قبضته المرصعة بالجواهر لأبيها الكاهن آرام .
وقالت زامورات ، بصوت متهدج :
— أسرع يا أبى ! ونفذ إرادة الآلهة !

وارتفعت في أرجاء المعبد أصوات الكهنة والكاهنات ، تضرع إلى إلهة الدماء بأن تتقبل الذبيحة الطاهرة ، وتبسط رواق رحمتها على المدن والحقول ، وتعيد إلى الموانئ سفن الفينيقيين من رحلاتها البعيدة ، وتأخذ بيد تجار اللؤلؤ والزجاج الضارين في طول الممالك وعرضها ، وفي مشارق الأرض ومغاربها ، وتردّ عن الأوطان غزو الغزاة وكيد الكائدين ، وتحلّ السعادة في صدور الأفراد والجماعات ، وتبعث للعذارى بأزواج صالحين ، وللشبان الأقوياء بزوجات صالحات !

وفي وسط تلك الضوضاء رفع الكاهن الأعظم آرام ذراعه اليمنى ، فأخذت أعين الحاضرين وميض نصل يلمع في قبضته . . .

لكنهم لم يسمعوا الصرخة المفجعة التي أرسلتها الفتاة زامورات

عند ما احترق النصل الذهبي صدرها ، ومزق ثديها ، واستقر في قلبها ،
لأن تلك الصرخة ضاعت بين أصوات المصلين وضحج الهاتفين !

*
* *

هكذا ماتت زامورات الفينيقية ، حبيبة الاسكندر ، بيد أبيها
الكاهن الأعظم آرام ، في هيكل عشتروت المعبودة الجبارة ، المتعطشة
إلى الدماء ، في مدينة صيدون الظافرة ، في سنة ٣٣١ قبل الميلاد ،
عملاً بأرادة الآلهة وتنفيذاً لمشيتها !



جلبا الافريقى

جلس « جلبا الافريقى » مع زوجته اليونانية الحسنة « نيرا » على شاطئ النهر ، فى ظلال شجرة كثيفة الأغصان ، خارج أسوار روما ، وجعلا يتجاذبان أطراف الحديث ، ويتبادلان نجوى الغرام ، ويتناولان قبلات الاخلاص الحارة العذبة .

وقال جلبا لزوجته المحبوبة :

— أى نيرا ، عزيزتى التى أفديها بدمى . لترفع الآن أكف الضراعة للآلهة القديرة ، طالبين منها أن ترعى حبنا بعنايتها ، وتدفع عنا الأذى ، وتجعلنا فى مأمن من كيد الكائدين وأعين الحساد الغادرين ! فأجابت نيرا ، مطوقة بذراعيها عنق زوجها المحبوب :

— أى جلبا ، عزيزى ! إننى أفعل ذلك كل يوم ، عند ما تغادرنى إلى قصر الامبراطور للقيام بعملك . فانى أصلى دائما وأبتهل إلى الآلهة

لكي تجعل جميع أيامك حافلة بالسعادة والهناء ، وتحفظ لك على الدوام
عطف الامبراطور ورضاه . فلو حدث لك سوء أيها الحبيب لمت
من الأسى !

فتعاقب الزوجان طويلا ، وقال جلبا لنيرا الحسناء :

— إنني واثق من عطف الامبراطور نيرون علىّ يا حبيبتي . فقد
كنت في قصره عبداً رقيقاً ، لكنني أخلصت له الخدمة وأتقذت حياته
في الحروب ، فكافأني بذلك العطف الذي يحسدني عليه رجال القصر
جميعاً ، وأعتقني فأصبحت الآن حراً طليقاً ، ولا يسعني إلا أن أحفظ
للامبراطور جميل الذكري ، لأنه حطم يديه وبارادته سلاسل الرقّ
وقيود العبودية التي كانت تغلّ عنقي وتذله ! ولم أتقدم إليك يا نيرا
طالباً منك أن ترضى بي زوجاً لك إلا بعد أن أصبحت حراً ، وزال عني
ذلك العار الشنيع ! لم أولد عبداً يا نيرا . وإنما ولدت من أبوين حرين ،
كانا في الصحارى الافريقية يبسطان سلطانهما على القبائل الضاربة فيها .
ولكن روما بلغ بها الطمع إلى الاستيلاء على تلك المجاهل ، فهزمت
جيوشها قبائل أبي في الميادين ، وكنت في العشرين من سني حياتي ،
فجئ بي إلى هذه المدينة الكبيرة ، وألحقت بالعييد الراسفين في قيود
الذل ، في قصر نيرون العظيم .

— إنني أعرف ذلك كله يا حبيبي ، ولا أعيرك بأصلك ، فأنت

الشريف ابن الشريف ، وعواطفك النبيلة تدلّ على أنك بين الرجال
أصيل وابن أصيل !

— كنت أتألم من العبودية يا نيرا ، إلى أن سمحت لى الظروف
والفرص ، فأثبتت للامبراطور أنني فى الحروب جندى شجاع ، وأن
ذراعى أجدر بحمل السيف منها بتقديم أقذاح الخمر للشاربين ، فى
حفلات السمر واللهو التى يحبها الامبراطور فى قصره . فقد وثبت فى
وسط القتال على جندى كان يهدد صدر نيرون بسنان رمحه ، وبضربة
واحدة فصلت رأسه عن جسده ، وأتقذت حياة الرجل الذى أفقدنى
أبى وأمى ووطنى وحرّيتى ! وقد أراد نيرون أن يكافئنى فأطلقنى من
الأسر والعبودية . لكننى بقيت فى القصر مقبياً ، وقد عهد إلى الامبراطور
بمراقبة حرسه الخاص ، والإشراف على الأعمال التى يقوم بها العبيد
فى القصر الامبراطورى . فأنت الآن زوجة ضابط فى خدمة نيرون !



كان جلبا الافريقى — كما كانوا يسمونه فى روما — فى الثلاثين من
عمره ، عند ما تزوج الفتاة نيرا اليونانية ، وكانت نيرا تقيم فى قصر
القائد لوكولوس ، الذى تبناها عند ما بلغه أنها فقدت أباه الذى كان
يحبّه ويخلص له الودّ ، ولم يتردد لوكولوس فى الموافقة على زواج الشابين

عند ما ثبت له أن نيرون قد أطلق للعبد جلبا حرّيته ، فأصبح إنساناً
كبقية البشر !

وكان ذلك سنة ٦٧ للميلاد ، أى فى السنة الثالثة عشرة لارتقاء
نيرون أريكة الامبراطورية . فقد ظلّ الشاب الافريقى عشر سنوات
كاملة يعيش عيشة العبيد فى القصر الامبراطورى ، ويعامل معاملتهم ،
ويتحمل احتقار الناس وإهاناتهم !

وظنّ منذ ذلك الوقت الذى أصبح فيه حرّاً وزوج امرأة حرة ، أن
أيام البؤس قد ولت ، وأن الغد ينحىء له السعادة ويضمّر له الهناء .
لكن جلبا الافريقى كان مخطئاً . فان الأقدار كانت تحمل إليه فى
طياتها آخر حلقة من مصائبه !

فقد ذهب جلبا ، بعد ذلك الحديث الذى دار بينه وبين زوجته ،
إلى منزله حيث ودع نيرا الجميلة ، وأسرع إلى القصر الامبراطورى فمثل
بين يدي نيرون ، وأفضى إليه بالخبر السارّ ، خبر زواجه باليونانية
الحسنة !

وما انتهى جلبا من كلامه ، حتى تطاير الشرر من عيني نيرون ،
وصاح به قائلاً :

— أية امرأة تعنى يا جلبا ؟ أتحدثنى عن نيرا ، ربيبة لوكولوس القائد
الشجاع المحنك ؟

— نعم يا مولاي ، هى بعينها !

فسكت نيرون لحظة ، ثم ارتسمت على شفثيه ابتسامة غريبة ، لم يدرك جلبا الافريقى الطيب القلب معناها ، وقال :

— إننى مرتاح لذلك يا جلبا . فاحمل إلى زوجتك تحية الامبراطور الذى يحبك ويعطف عليك . وقد أجد فى مستقبل الأيام فرصة أثبت لك فيها أن عطفى يمتد أيضاً إلى زوجتك وأبنائك ، إذا رزقت فى الغد أبناء . . .

فانكب جلبا على يد الامبراطور العظيم يقبلها ويقول :

— إنه لشرف عظيم يا مولاي تغدقه على . فحياتى ملك لك . وسأكون سعيداً بأن أضحيها فى سبيلك !



عاد جلبا إلى منزله ، مشياً على قدميه ، ولكنه قبل أن يصل إليه أدرك أن حادثاً قد حدث فى الحى الذى يقطن فيه ، وحدثته نفسه بأنه وزوجته ليسا غريبين عن ذلك الحادث . . .

سمع امرأة تنادى جارتها من نافذة بيتها ، وتقول لها إن الجنود اقتحموا المنزل فى الوقت الذى كان فيه الزوج غائباً ، واختطفوا الزوجة وحملوها فى مركبة وولوا هارين .

وقالت الجارة إن زوجها قد قصّ عليها ما حدث ، وإن المرأة التى اختطفها الجند « يونانية » مشهورة بجمالها ، وإن زوجها من رجال القصر الامبراطورى !

لم يكن في الحى من رجال القصر غير جلبا ، ولم يكن فيه رجل
سواه ، زوجته « يونانية مشهورة بجمالها . . . »
صعق المسكين مما سمعه ، وأسرع فأدرك منزله وقد أحاط به
الجيران وجعلوا يوجهون أسئلتهم إلى الخادمة العجوز ، مستفهمين منها
عما حدث .

وشقّ جلبا صفوفهم كالجنون ، فاذا به أمام الخادمة وقد مرقت
ثوبها ، وأرخت شعرها ، وانطرحت على الأرض تبكى وتلطم خديها ،
نادبة حظها وحظ سيدها .

وعلم منها أن عشرة جنود اقتحموا المنزل قبل قدومه بوقت وجيز ،
وحملوا نيرا معهم ، غير مبالين بصياحها ، وذهبوا بها إلى جهة غير معلومة .
فثار ثائر جلبا الأفريقى ، وأدرك فى تلك اللحظة معنى الابتسامة التى
طافت على شفتى نيرون عند ما حدثته عن زواجه بنيرا اليونانية الحسنة ،
ولم يشك فى أن الامبراطور المتعطش إلى الدماء والاعراض ، قد دبر له
هذه المكيدة ، وأنه هو المحرض على اختطاف زوجته ، وأن الجنود
الذين اقتحموا منزله إنما يعملون لحساب نيرون .

صعد الدم إلى رأسه ، فالتفت إلى الذين كانوا حوله من سكان الحى
وصاح قائلا :

— أيها الناس ! كونوا على شهوداً ! أقسم بالنار التى يعبد أبناء
قومى السنة ليهيها المتصاعدة ، أننى لن أعود إلى هذا المنزل حياً ! لقد

حرمنى نيرون أبى وأمى ووطنى وحرّيتى، ويريد الآن أن يجرمنى زوجتى
بعد أن يدنسها بعاره، ولكننى لن أسمح له بذلك ولن أترك جريمة
كهنه تقترب، وعاراً كهذا يلطخ اسمى، وفى عروقى نقطة من الدماء
تجربى! إن لم يمت نيرون، فستموت نيرا ويلحق بها جلبا الافريقى!
حاول الناس أن يهدئوا من ثورته، لكنه اقتحم صفوفهم من
جديد وشقّ لنفسه طريقاً بينهم، وراح يعدو إلى الأمام كمن به مسّ
من الجنون!



وصل جلبا إلى رتاج القصر الخارجى واندفع إلى الداخل وهو يرغى
ويزبد، ولم يعترضه أحد من الحراس لأنهم كانوا يعرفون مقامه ووظيفته
فى البلاط، وظلّ الرجل سائراً أمامه، مسرعاً إلى الجناح الذى كان يعرف
أن زبانية الامبراطور يحملون إليه النساء اللواتى يثرن شهوة ذلك النمر
البشرى!

وعند ما وصل إلى باب البهو الكبير، المؤدّى إلى ذلك الجناح،
وقف مصعوقاً فى مكانه لهول المنظر الذى وقعت عليه عيناه.
رأى جلبا - ويا لهول ما رأى! - رأى زوجته المحبوبة نيرا، جثة
هامدة ملقاة فى مدخل البهو الكبير، لا حراك فيها، وقد علا وجهها
شحوب الموت، وأحاط بها جماعة من ضباط القصر، أى من زملائه
فى الخدمة، ورفاقه فى السهر على راحة الامبراطور!

وتقدّم منه أحدهم ، ووضع يده بلطف على كتفه ، وقال له بصوت مضطرب ، والحزن باد على وجهه :

— جلبا . ! . ! . إننا جميعاً نحمل لك في صدورنا الودّ والاخلاص والمحبة ! إن مصيبتك عظيمة بفقد زوجتك . لكنّها مصيبة لم تلتطخ بالعار ، ولم يلحق بك من أجلها شئنا ! لقد أراد الامبراطور بك وبزوجتك سوءاً ، لكن زوجتك أنقذتك وأنقذت نفسها من العار ، فأثرت الرحيل عن هذا العالم طاهرة الذيل نقية الجسم مرتاحة الضمير . لقد خنقت نفسها بشعر رأسها . ! . ! . فاذا كنّا نعزيزك أيها الصديق لموت زوجتك ، فاننا في آن واحد نهنتك على تلك الميتة الشريفة !

لم يردّ جلبا على هذا الخطاب ، بل ظلّ واقفاً في مكانه ، صامتا ، والدمع منحبس في عينيه يخنق أنفاسه ، ويضاعف في ألمه .

ثمّ تحرّك . . . ومشى . . . وألقى بنفسه على جثة المحبوبة المخلصة الطاهرة ، وحينذاك انهمرت الدموع من عينيه كالطر المdrار ، وارتفعت زفراته في ذلك البهو ، فاستدرّت دموع رفاقه وزملائه ، فوقفوا ينظرون إليه صامتين خاشعين !

وبينما هم كذلك ، إذا بصوت قاصف كالرعد يدوى في أرجاء المكان صائحا :

— اقتلوا الزوج ليلحق بزوجه اللعينة ! أين جلبا الا فريقى ،

العبد الذى أعتقته وأطلقته من الأسر والرق ، فجاء الآن يمانعني عرضه
ويمسك عني زوجته !

فنهض جلبا عند سماعه ذلك الصوت الداوى ، وصاح بالامبراطور
قائلا :

— ألا لعنة الآلهة عليك يا أفضع الرجال وأقساهم ! أبعد أن قتلت
أخاك وأمك وزوجتك ينتظر منك أن تكون أكثر رقاً بزوجات
رعايك وأمهاتهم وأخواتهم ؟ سأخلق بزوجتي يا نيرون ، واعلم أن الظلم
عاقبته وخيمة ، وأن القاتل سوف يسقط ، إن عاجلا وإن آجلا ، تحت
طعنات القتلة المنتقمين !

واستلّ جلبا الا فريقى خنجره ، وأغمد نصله فى صدره ، فسقط
على جثة زوجته ، وامتزجت دماؤها ، وراحا شهيدين ضحيتين !



وبعد سنة من ذلك اليوم ، ثارت الامبراطورية الرومانية على
نيرون ، فحتم ذلك الطاغية حياته منتحراً ، على مقربة من روما ، بعد
أن فرمها ، ورأى أعداءه يستولون عليها ، وينادون فيها بغيره امبراطوراً
على الرومانيين .

وكان ذلك فى سنة ٦٨ للميلاد .

حارس نيرون

— النار... النار... النار..!

كلمة رددتها آلاف الأفواه ، فتصاعدت من كل ناحية في روما ،
وتناولها الصدى فنقلها من شارع إلى شارع ومن حيّ إلى حيّ ، وما هي
إلا ثلاث ساعات حتى كانت المدينة تموج بجماهير الهاربين المذعورين ،
كل يحاول أن يفوز بحياته ، بينما ألسنة النيران تندلع في المنازل
والهياكل ، وترتفع في الفضاء ، وسط سحب كثيف من الدخان القاتم...
وعلا الصياح والبكاء والعويل ، وعمت المدينة قعقة مخيفة ،
وانهارت سقوف البيوت على سكانها ، وأعمدة المعابد على الكهنة
والمصلين !

وخرج نيرون ، الامبراطور العظيم ، في موكب حافل من حملة

المشاعل ، وحرّاس القصر ، وجعل يطوف في روما وييده قيثارته
 المحبوبة ، يعزف عليها ألحاناً شجية على ضوء النيران !
 وكان ذلك في سنة ٦٤ للميلاد ، وهى السنة الحادية عشرة لحكم
 نيرون .

وعاد الامبراطور إلى القصر ، بعد أن التهمت النيران المدينة الجميلة ،
 وألقى القيثاره من يده ، وجلس على مقعد وثير حاكته له أيدي العاملات
 الفينقيات من الأطلس الأحمر ، وقال لرجال حاشيته :
 — لقد احترقت المدينة اليوم ، وسيحفظ التاريخ هذا اليوم في
 سجلاته ، لكننى سأشيد على أنقاض روما المحترقة مدينة جديدة ،
 تنسيكم ما كانت عليه المدينة القديمة من عظمة وجمال !



فنيرون يعرف الآن في التاريخ بأنه حارق روما ، والتاريخ يظهره
 بمظهر الطاغية الجبار العنيد ، المتعطش دائماً إلى الدماء ، الغارق فيها
 إلى رأسه .

ولا شك في أن شخصية ذلك الامبراطور من أغرب الشخصيات
 التى حدثنا عنها المؤرخون ، إن لم تكن أغرب شخصية عرفها الناس
 إلى الآن .

كان نيرون مجموعة رجال في رجل واحد ، وفي أعماله من المتناقضات
 ما يجعل العقل يقف أمامه حائراً ، لا يدري أى حكم يصدر عليه .

كان محباً ومبغضاً ، ومحبوباً وبغيضاً . وكان رقيق الشعور وقاسى
الفؤاد . وكان مصلحاً ومخرباً ، وشاعراً وعدو الشعراء ، وموسيقياً
يضطهد الموسيقيين ، وقد أعدم منهم كثيرين . وكان يعمل لمجد روما
ومن ناحية أخرى يسعى إلى تدميرها وتخريبها .

ذلك هو نيرون الذى كان يعزف على القيثارة وينشد الأناشيد
بينما عاصمة ملكه تذهب طعمة للنيران .

ذلك هو الامبراطور الذى كانت حياته سلسلة فظائع ومنكرات ،
والذى لم يصنع الخير فى مدى تلك الحياة غير مرة واحدة كما سترى .



جلس نيرون على مقعده الوثير ، ودعا رجاله إلى الجلوس حوله ، وبعد
أن اكتمل عقدهم ، نادى الامبراطور عبيده وخدمه ، وأمرهم بأن
يديروا كؤوس الخمر على الحاضرين .

وكان بين الخدم رجل يونانى هرب من دار سيده فى أثينا، واحتتمى
بقصر الامبراطور الرومانى ، فجعله حارساً على مستودع الخمر ورئيساً على
العبيد الذين يخدمون الضيوف فى الأعياد والحفلات والولائم .

واسم ذلك الرجل ديوموس . . .

نادى نيرون عبيده قائلاً :

— صبوا الخمر فى الكؤوس وأديروها على الحاضرين ، فان هذا

اليوم من أبهج أيام ملكي ، ويجب أن نسكر بنشوة الخمر بعد أن سكرنا بمنظر النيران !

وأدبرت السكؤوس حسب رغبة الامبراطور ، لكن ديوموس كان في ذلك الوقت خارج القاعة التي أقيمت فيها الحفلة ، فالتفت نيرون بعد أن لعبت الخمر في رأسه وصاح :

— لا أرى ديوموس بينكم ! فأين هو ؟

— في أقبية القصر أيها المولى ، يراقب العبيد وهم يحملون الخمر إلى هنا . . .

فغضب الامبراطور ، والتفت إلى قواد جيشه الواقفين بالباب وقال :

— لقد أمرت ديوموس بأن يصب لي الخمر في الولائم بيده . فماذا حدث اليوم ؟ ولماذا يختبئ ذلك اليوناني اللعين ! على به في الحال !

فجاء ديوموس ، وألقى اليوناني المسكين نفسه على قدمي نيرون ، وطلب العفو قائلاً إنه لم يبطئ في المجيء لخدمة الامبراطور إلا لأن وجوده كان ضرورياً في أقبية القصر .

لكن نيرون لم يصغ إليه ، بل رفع صولجانه بيده وضرب به رأس اليوناني ضربة شديدة أسالت منه الدماء وألقته على الأرض فاقدارشد . وأمر نيرون بأن يشد وثاقه ويطرح جانبا إلى أن تنتهي الوليمة .

وبعد أن شرب الجميع وأصبحوا في حالة سكر شديد ، صاح نيرون :

— على باليوناني ديوموس !
ونادى السيف وأمره بأن يقطع يدى اليونانى المسكين ، فنفذ
السيف الأمر بين صياح المدعويين وقهقهتهم وهتافهم !



— أتنالم كثيراً يا أخى ؟
— نعم ! ولهذا السبب رجوتك أن تجهز على لىكى تريحنى من
هذا العذاب الشديد !
— لكننى لن أجيبك إلى رغبتك ، بل أعتقد أن واجبى يقضى
علىّ بعكس ذلك ، وكما أن الحرّ للحرّ فى الملمات ، فان العبد للعبد
أيضاً ، والخادم للخادم ، فى السراء والضراء .

رفض زميل ديوموس ، العبد الافريقى « جازيبا » أن يجهز على
اليونانى الذى قطعت يده بأمر نيرون ، فنقله إلى ناحية نائية من
القصر ، وجعل يعالج جراحه ، ويعيد الثقة والأمل إلى نفسه ، ومامت
أسابيع معدودة على ذلك اليوم ، حتى كان ديوموس قد شفى من جراحه
واستعاد قواه ، وعقد النية على البقاء حياً ، وعلى الاستعاضة عن يديه
بقدميه !

وجعل يدرّب نفسه على الأعمال « اليدوية » جميعها ، ويستخدم
« قدميه » للقيام بها وبعد شهر أصبح ديوموس قادراً على تناول

طعامه وشرابه ، ومساعدة رفيقه وصديقه ومنقذه ، في الأعمال التي كان يقوم بها في قصر الامبراطور .
وشاءت الظروف أن تضع وجهاً لوجه مرة أخرى الجلاد وضحيتة !



الامبراطور الروماني نيرون

فان الامبراطور نيرون كان يطوف من وقت إلى آخر في أنحاء القصر، لتفقد أحواله بنفسه دون أن يعلم به أحد . وحدث ذات يوم أن كان ماراً في الجناح المخصص للخدم والعبيد ، فوقع نظره على ديوموس وهو ينظف آنية الطعام بتقديمه بمهارة فائقة .

وقف نيرون أمام ذلك الرجل مندهشاً مستغرباً ، وكان قد نسي خادمه المسكين وما صنعه به في تلك الولاية ، فعاد أدراجه إلى مخدعه ،

وأرسل في طلب رئيس الحراس ، وسأله من يكون ذلك الخادم الذي
يستخدم قدميه بدلا من يديه ؟

فقال رئيس الحراس :

— هو خادمكم ديوموس اليونانى يا مولاي . فقد أمرتم بقطع يديه
على مرأى من المعدوين ، بعد حريق روما ، فأنقذه رفاقه من الموت ،
وهو لا يزال إلى الآن يقوم بوظيفته فى القصر بأمانة وإخلاص .

فبدأ التأثر على وجه نيرون ، وأرسل فى طلب ديوموس اليونانى
فجىء به ، وعند ما مثل بين يدى الامبراطور ، قال نيرون :
— لقد أسأت إليك يا أخى إساءة عظيمة . فأرجو منك أن تغفر لى
تلك الإساءة .

وتلك هى المرة الأولى التى وقف فيها نيرون مستغفراً طالباً الصفح !
فانطرح الرجل على الأرض وجعل يقبل قدم الامبراطور قائلاً :
— إننى ملك لك يا مولاي فاصنع بى ما تشاء !

— أنت منذ الآن حارس من حراس هذا القصر . فقف بالباب
وكن حراً طليقاً !

وعرف ديوموس منذ ذلك اليوم باسم « حارس نيرون » وقد
أغدق عليه الامبراطور العطايا والهبات ، وقربه إليه ، وأمر عبيده بأن
يقوموا بخدمته ، وبألا يرفض له طلب فى القصر الامبراطورى .



عاش ديوموس « حارس نيرون » بعد ذلك في القصر معزّزاً
مكرماً ، وجعل يدرّب قدميه على أعمال دقيقة ، كالرسم والتطريز
وتحت التماثيل وصناعة الأسلحة والخزف . واشتهر في روما ، وصنع
تمثالاً لنيرون وضعه الامبراطور في حجرة نومه ، وظلّ فيها إلى أن
حطمه أعداء نيرون بعد موته ، في سنة ٦٨ للميلاد .
ولم يطرد ديوموس من القصر بعد موت سيده ، بل بقي فيه حراً
طليقاً ، يقيم في غرفة خاصة ، وتحت تصرّفه ثلاثة من العبيد يقومون
بخدمته .

ومات في سنة ٧٧ للميلاد ، تاركاً بعده شهرة واسعة ، وآثاراً فنية
قيمة ، ودوّن اسمه في التاريخ بجانب اسم سيده ، الذي كان في آن معاً
سبب شقائه ونعيمه ، والذي لولاه لما أصبح ديوموس ذلك الفنان
الذي صنع التماثيل ، وأدهش الناس ببراعته ونبوغه ، والذي أثبت أن
الهمة القعساء تذلل الصعاب أيّاً كانت ، وأن الرجل إذا اعتصم بالصبر
والارادة الثابتة ، تمكن من الاستعاضة عن يديه بقدميه !



جنكيز خان ينتقم

وصل الفاتح التتري الخيف جنكيز خان بجيوشه الجرارة إلى مدينة «بخارا» وأقام عليها الحصار من الجهات الأربع ، وأوفد إلى أعيانها رسولا يقول :

— إن مولاي جنكيز خان «سيف الله المسلط على رموس البشر» يقول لكم : «لقد ابتلاكم الله به لأنكم أفسدتم وتماديتم في الضلال ، وما جاء إليكم إلا لكي يطهر الأرض من الفسق والفجور ويحارب الشرّ بالشرّ . فابعثوا إليه مفاتيح مدينتكم ، وأقسموا له يمين الطاعة والخضوع لئلا يحلّ بكم ما حلّ بغيركم من الناس !»

وكان في المدينة عشرون ألفاً من الجنود المسلمين عقدوا النية على المقاومة والدفاع ، وصد الغزاة الفاتحين ، ودفع البلاء المستطير عن أنفسهم وأبنائهم وذويهم .

فطردوا الرسول واستعدوا للقتال ، وعلت في فضاء بخارا المنيرة
أصوات المقاتلين ، وتصاعد تهليلهم وتكبيرهم ، منبعثاً من أعماق الصدور :
« الله أكبر ! الله أكبر ! »

ودون السلطان محمد ورجاله الأشاوس المغاوير ، في ذلك اليوم
العظيم ، صفحة من أجد الصفحات في تاريخ الإسلام فقاتلوا
المهاجرين قتال الأبطال ، واستبسلا في دفاعهم مستميتين . . .

لكن المثل يقول - من قديم الزمان - إن الكثرة تغلب الشجاعة
وإن عشرة أطفال عزل يقهرون كميّاً شاكي السلاح !

تغلبت الكثرة على الشجاعة في تلك المعركة الدموية ، فدخل
جنكيز خان المدينة فائزاً منصوراً ، وأمر جنوده بذبح السكان شيوخاً
ونساء وكهولا وأطفالا . . .

لكنه حذرهم من قتل الشبان وطلب إليهم أن يأتوا بهم إلى معسكره
مصنفين بالأغلال .

تلك كانت خطته في جمع العساكر لجيشه العظيم ، فإنه كان يذبح
سكان البلاد التي يجتاحها ولا يعفو إلا عن الشبان لكي ينضموا إلى
رجاله ويلحقوا بجيشه الظافر .

وهذا ما أمر زبانيته بصنعه في بخارا ، فاضرمت فيها النيران ،
وسالت الدماء ، وغادرها الفاتح التتري خراباً يباباً ، سائقاً معه ما تبقى من
سكانها ، أي خمسة آلاف من الشبان الأشداء !

وكان ذلك في سنة ٦١٧ هجرية ، الموافقة لسنة ١٢٢٠ للميلاد . . .

وفي الساعة التي كان جنكيز خان يستعدّ فيها للرحيل ، بعد أن شاهد من أعلى الربوات المحيطة بالمدينة ، الدخان يتصاعد من خرائبها وأطلالها ، اقترب منه قائد من قواده وقال :

— مولاي ملك الملوك ! لقد أمرتنا بذبح النساء جميعاً ، لكنني عفوت عن إحداهن وجئت بها إليك ، لأنني أعتقد أنك لا ترضى لها بالموت كغيرها ، وأنت ستأمر بتعذيبها والتنكيل بها .

فالتفت إليه جنكيز خان مقطب الجبين وقال بصوت أجش :

— من هي تلك المرأة وماذا صنعت ؟

فأجاب القائد :

— أما من تكون فهذا ما أجهله . لكنني أعلم أنها قاتلت رجالنا قتال اللبوة الهائجة الشائرة ! فقد كانت تلك المرأة معتصمة مع زوجها في منزل قديم متهدم ، فتمكنت من قتل ثلاثين من جنودك يا مولاي قبل أن تصل إليها أيدينا ، وقد ذبحنا بعلمها على مرأى منها وسقمناها إليك صاغرة ذليلة !

— علىّ بها !



جاءوا بالمرأة ، وما وقع عليها نظر جنكيز خان حتى انتفض في مكانه صائحاً :

١ - هالون ! هالون ! ألا لعنة الله عليك يا ابنة اللثام ! إنك تنفذين
هنا ما أقسمت به هناك ، وتبرين باليمين التي قطعتها على نفسك في
بلادنا !

ثم اقترب من المرأة التي ظلت جامدة في مكانها ، لا تنطق بكلمة .
فصفعها بيديه على خديها ، وقال :
- سوف أنزل بك العقاب الذي تستحقينه !



وعادت الذاكرة بالفاتح التتري إلى أيام الصبا وعهد الشباب ،
ومرّت في مخيلته حياته الماضية .

كان أبوه أميراً على قبيلة من قبائل التتار في شمال الصين ، فمات
عنه وهو صغير ، وتحالف عليه أهله وذووه وأمراء القبائل الأخر ، لكي
ينزعوا منه السلطة ويوردوه موارد الهلاك . لكن أمه أنقذته من
دسائسهم ، وابتعدت به عن تلك الديار ، واحتمت بصديق قديم كان
من قبل حليف زوجها ، وهو أيضاً من أمراء القبائل الرحل ، الضاربة
في تلك الصحارى والجبال .

شب جنكيز خان وترعرع في كنف الأمير ، الذي أحبه وأعجب
بشجاعته وإقدامه وصفاته الحربية ، فزوجه ابنته « الأميرة خاتون »
وأصبح يعتمد عليه في الحروب والغزوات أكثر مما يعتمد على ابنه
الضعيف الخائر العزيم .



جنكيز خان

فدب الحسد في قلب الابن ، وجعل يوغر صدر أبيه على جنكيز خان ،
الشاب الغريب ، الذي يرمى إلى الاستئثار بالسلطة ، والذي قد ينتهي
به الأمر إلى دس السم للأمير لكي يخلوه الجو ، ويصبح سيد القبيلة
وقائدها الأوحده .

نجحت الدسيسة وأعرض الأمير عن صديقه وزوج ابنته ، وأطلق
يد ابنه التمام ، ويهد إليه بأن يقتل جنكيز خان عند ما يجد إلى ذلك

سبيلا . لكن زوجة الشاب فطنت إلى المكيدة ، وأطلعت زوجها عليها ، فعزم جنكيز خان على التخلص من الأمير وابنه قبل أن يتمكنوا من إلحاق الأذى به .

وفي ذات يوم ، نادى المنادى في مرابع الحى أن الأمير قد قتل ، وأن النصل الذى أغمد فى صدره وانتزع الحياة من بين جنبه لا يزال باقياً فى صدر ولده ، وقد مرّقه واستقرّ فى القلب ! وكان ذلك فى سنة ٦٠٣ هجرية ، الموافقة سنة ١٢٠٦ للميلاد .

فبكت القبيلة أميرها وابن أميرها . ونادت بجنكيز ، الشاب الشجاع ، زوج الأميرة خاتون ، أميراً بدل الأمير القليل !

وبنما كان رجال الحى يشربون عصير التمر ويرقصون حول النيران الموقدة ، إذا بامرأة تشق الصفوف ، وقد مرّقت ثوبها ، وحلت شعرها وأهرقت عليه السمن والزيت ، ووقفت فى وسط تلك الجموع المحتشدة ، وبسطت يديها فوق النيران صائحة :

— يا لكم من جناء ! إن قاتل أميركم وابنه ، هو هذا الذى تنادون به اليوم سيداً عليكم وقائداً لكم . . . هو جنكيز خان اللقيط اللعين ! لقد ختم العهد الذى قطعتموه لأسرة أميركم ، لكننى على ذلك العهد باقية ، وسوف تجدنى يا جنكيز يوماً من الأيام فى طريقك ، وأقسم لك أمام هذه النيران المشتعلة أن حقدى سيظل فى الصدر مضطرباً مثلها ، وأنتى سأنتقم منك وأخذ بشار القتيلين !

قالت المرأة هذا ، وانصرفت بين صياح النساء وأهازيج الرجال ،
فسأل جنكيز خان :

— من تكون هذه المعتوهة ؟

فأجابوه :

— هي هالون أيها المولى ، عشيقة الأمير الشاب الذى وجدناه ميتاً
بجانب أبيه ، وكان عازماً على اتخاذها زوجة له ، والمناداة بها فيما بعد
أميرة على القبيلة عند ما يصبح هو أميراً عليها !



تلك هي المرأة التى ساقها جنود جنكيز خان إليه ، أمام أسوار بخارا ،
بينما كانت النيران تلتهم البقية الباقية من المدينة التعسة .

كانت المرأة قد غادرت بلادها وراحت تهيم على وجهها من قطر إلى
قطر ، ومن مدينة إلى أخرى ، حتى انتهى بها المطاف إلى بخارا ،
حيث وجدت نفسها وحيدة معدمة ، غير قادرة على متابعة السير .

أضافها هناك رجل عربى يدعى عبد الله الموصلى ، وبعد أن أقامت
فى بيته بضعة أيام ، طلب منها أن تستقرّ فى بخارا وتصبح حليلته ،
لأنه لم يكن متزوجاً . فرضيت هالون بما كتب لها على صفحة القدر ،
وبقيت فى البيت الذى وجدت فيه تلك الضيافة وذلك الكرم .

ورزقت من عبد الله الموصلى ثلاثة أبناء أرضعتهم كره التتار مع
اللبن ، وأقسمت أن تجعل منهم ثلاثة جنود لمحاربة جنكيز وأبناء قومه .

لكن الدائرة دارت عليها ، وسبقها جنكيز إلى الانتقام ، فهاجم بخارا واستولى عليها بعد ذلك القتال العنيف .

وقد دافعت هالون عن بيتها ، مع زوجها عبد الله ، فقتلت من التتار ثلاثين رجلا قبل أن يتمكنوا من اقتحام الباب وذبح الزوج وإضرار النار في أرجاء المكان . ! .



وأصدر جنكيز خان أمره إلى جنوده بأن يحفروا في الأرض حفرة ويدفنوا فيها هالون وزوجة عبد الله الموصلى وأبناءها الثلاثة ، عقاباً لها على ما أدته من شجاعة في الدفاع عن حماها والذود عن حياضها .

وأراد أخو الشر أن تدفن المرأة حية مع أبنائها أمام عينيه ! وبعد أن تم له ما أراد ، أمر باحضار مضر به المتنقل ، الذي كان يجره ثلاثون من الثيران ، فدخل إليه ، وأشار إلى رجاله بالرحيل

وغادر المدينة هادى البال مرتاح الضمير ، وشدد رجاله الرجال إلى غزوات جديدة ، إلى مدن تحرق ، وأسوار تدك ، وقصور تهب . . . إلى محاربة الشر بالشر كما كان ذلك يقتري الهمجي يقول . . .

إلى القتل والسلب والسبي . . .

إلى إقامة حكم التتار وملسكهم على صروح من الجاهل وأنهار من

الدماء !

١٣

ملكة قبرص

التقيت ذات يوم بصديق قبرصى ، ولد فى مصر ويقيم فيها ويحسن لغة أبنائها ، فأمسك ييدى وقال :

— قرأت لك مرة قصة تاريخية عن أميرة من أميرات العهد الصليبي تدعى « اليونورا » وقد ذكرتنى تلك القصة بأميرة تحمل أيضاً هذا الاسم ، جلست على عرش قبرص فى عهد كانت فيه جزيرتنا متمتعة باستقلالها ، بأسطة نفوذها على سواحل البحر المتوسط . فلماذا لا تكتب قصة تلك الممكة القبرصية وتطلع قراءك عليها ؟

فقلت له :

— أعرف أن إحدى ملكات قبرص فى الجيل الرابع عشر كانت تدعى « اليونورا » ولكنى لا أعرف عنها ما يستحق الذكر ، ويدعو إلى سرد قصتها فى سلسلة مباحثى فى « تاريخ ما أهمله التاريخ » فهل

تعرف شيئاً عنها ، أو تحتفظ ببعض المصادر التي يمكن الاعتماد عليها ؟
فأجاب قائلاً :

— اتبعني وسأضع بين يديك مايفيدك ويرضيك .
فتبعته . وبعد أن استقرّ بنا المقام في مكتبه ، أخرج من أحد
الأدراج كتيباً يونانياً وقال :

— هذه قصة ملكة قبرص اليونورا فهل تريد نقلها إلى العربية ؟
فأجبت مرحباً باقتراحه :

— نعم . على شرط أن تترجم لى ما يحويه هذا الكتيب فأنشر
ملخصه في قصة عن « ملكتكم » اليونورا . . .
وهذا ملخص ماجاء في ذلك الكتيب اليونانى :

في سنة ١٣٥٩ للميلاد ، عمت الأفراح مدينة نيقوسيا القبرصية ،
لمناسبة الاحتفال بزواج الملك بطرس الأول ، من أسرة لوسينيان ،
والأميرة اليونورا داراجون التي كانت تعد أجمل امرأة في الجزيرة كلها !
وتدفقت جماهير الشعب من جميع أنحاء المدينة على الميدان الكبير ،
أمام كنيسة القديسة صوفيا ، لمشاهدة الموكب الفخم الذي سار من القصر
الملكي الى الكنيسة ، مخترباً شوارع المدينة بين الهتاف والتصفيق
والدعاء الحار .

وكانت الملكة تحب الملك حباً جماً ، وكان الملك أيضاً يحبها ، ولكنه
من ناحية أخرى كان ضعيف القلب أمام النساء ، يلقي بنفسه بين

أذرعتهن كلما سنحت له فرصة وأحياناً دون أن تسنح له !
وأدركت الملكة بعد فوات الوقت أن زوجها طائش ، وأنها لن
تستطيع الاحتفاظ باخلاصه لها وبقائه على حبها دون سواها من النساء .
وما لبثت أن فطنت - وكانت ذكية جداً - إلى علاقة أثيمة تربط
زوجها بسيدة من سيدات البلاط تدعى « جان لالامان » وخيل
للملكة أنها استولت على فؤاد زوجها الملك ، وأوقعته في حبائل حبها .
وجعلت الملكة اليونورا تتحين الفرصة للإيقاع بتلك المرأة الخائنة ،
والانتقام منها ، دون أن يشعر أحد بذلك ، ودون أن يدرك الملك أن
زوجته عالمة بأمره ، مطلعة على سره .

واضطرب الملك بطرس الأول ذات يوم إلى الإبحار من قبرص قاصداً
ديار الغرب ، لقضاء بعض شئون مملكته ، ومفاوضة الملوك والأمراء
في أمر الدفاع عن قبرص تجاه أعدائها الكثيرين ، وبنوع خاص تجاه
الأتراك الذين استفحل أمرهم في ذلك الوقت ، وجعلوا يهددون سواحل
البحر المتوسط وجزره .

بقيت الملكة اليونورا وحدها في الجزيرة بعد سفر زوجها ، فاغتذمت
الفرصة وجاءت بغريمتها جان لالامان ، وجعلت تذيبها العذاب أشكالا
وألواناً . وكانت الملكة اليونورا ، مع جمالها البارِع ، حاذقة متفننة في
المكر وأساليب التعذيب !

وحدث في أثناء ذلك للملكة حادث غريب ، حادث لم تتمكن الملكة من تفسيره . ففي الوقت الذي كانت اليونورا فيه تنتقم من غريمتها جان لالامان لأنها انتزعت منها زوجها ، وتعاقبها على ما أحدثته في نفسها من ألم وعذاب ، في ذلك الوقت نفسه ، شعرت نحو شاب من شبان البلاط بعاطفة لا تختلف في شيء عن العاطفة التي كان زوجها يشعر بها نحو سواها من النساء !

نعم . أحبت الملكة شاباً يدعى جان دى مورفو ، وهي التي كانت تقضى الليالى باكية منتحبة ، لأن زوجها أحب امرأة غيرها ! وفطن أعداؤها وأنصار غريمتها جان لالامان إلى ذلك ، فوفدوا رسالهم إلى الملك بطرس الأول ، يطاعونه على ما حدث في غيابه ، ويخبرونه بخيانة زوجته وخروجها عن جادة الصواب والواجب الزوجي ! فعاد الملك بطرس الأول من بلاد الغرب إلى جزيرته ، وقلبه مفعم غيظاً وأسى ، وقد وطد العزم على الانتقام من الزوجة الخائنة !

لكن المرأة عرفت كيف تخدعه ، وتخفى عنه حقيقة الواقع ، وتظهر أعداءها بمظهر الكاذبين المنافقين . فافتنع الملك بطرس الأول ، ولسكنه خنق على شعبه وعلى الذين أبلغوه ذلك الخبر « الكاذب » وجعل ينزل بهم أنواع العذاب والإرهاق ، وأمعن في اضطهادهم إلى حد أن آثار حفيظتهم وحقدهم عليه ، فتآمروا فيما بينهم على قتله والتخلص منه . وخابروا بذلك أخاه الأمير « جان » الذي كان مقياً في إنطاكية

بسوريا ، واتفقوا معه على أن يكون نائباً للملك وقيما على الأمير بطرس الصغير ، ابن الملك بطرس الأول ، الذى كان فى الخامسة من عمره ، ويحمل اسم أبيه « بطرس لوسينيان »

وفى ذات يوم ، دخل المتآمرون على الملك وهو نائم فى حجرته ، فذبجوه ورفعوا على القصر الراية السوداء ، ونادوا بولى العهد الصغير بطرس ملكا على قبرص ، وأقاموا عمه جان الانطاكى قيا ووصيا عليه !



كانت اليونورا قد عللت النفس فى بادىء الأمر بأن يقع الاختيار عليها وصية على ابنها ، فعند ماخاب أملها ، وتلاشت أحلامها ، تضاعف غضبها على أولئك الأشراف الذين تأمروا عليها أولا ، ثم على زوجها فقتلوه ، وجعات تبحث عن وسيلة للقضاء عليهم وعلى الأمير جان ، نائب الملك .

ووقعت فى أثناء ذلك حرب بين جمهورية جنوى ومملكة قبرص ، فاحتل جنود جنوى مدينة نيقوسيا حيث وقع الملك الصغير بطرس سيرا ، واحتفظ به الأعداء رهينة فى القصر الملكى ، وفرت الملكة ونائب الملك وأنصارهما إلى جهات أخرى من الجزيرة ، حيث جعلوا يعدون العدة لاسترجاع المدينة الكبيرة من أيدي جنود جنوى .

جمعت الملكة الأشراف وارعماء فى بيتها ، وطلبت أن يتقدم واحد منهم للذهاب إلى نيقوسيا سرا ، وإضرام نار الثورة فيها بين أنصار

أسرة لوسينيان ، لإيقاظ الملك الصغير وإعادته إلى أمه .

فلم يتقدّم أحد من الأشراف للقيام بتلك المهمة الخطرة . . .

فصاحت الملكة بهم :

— أجميعم جناء ؟ أليس فيكم من يتقدّم على التضحية في سبيل

العرش والملك ؟

وهنا ارتفع صوت ضعيف قائلاً :

— أنا لها يا مولاتي . مريني بما تريدن القيام به !

كان المتكلم فتى في العشرين من عمره ، جميل الطلعة ، برّاق

العينين . فسأله الملكة :

— من أنت ؟

— ديمتري دانيلوس يا مولاتي . فتى فقير لا يملك غير حياته ، وهو

يضعها في كفة الأقدار قياماً بواجبه نحو وطنه والأسرة المالكة !

*
* *

ذهب الفتى ديمتري دانيلوس ، متخفياً في زى فلاح وعلى كتفه جرة

مملوءة لبناً ، إلى مدينة نيقوسيا . وجعل يتردد عليها باستمرار ، وينقل

الأخبار والأوامر بين المقرّ الملكي وأنصار الأسرة في المدينة . حتى إذا

ما أعدّ كل شيء لإثارة الفتنة المنتظرة ، هبّ سكان المدينة دفعة واحدة

وهاجموا معسكر الجنويين وألقوا ملكهم الصغير وحملوه إلى أمه !

وفي مساء ذلك اليوم دعى ديمتري دانيلوس للمثول بين يدي الملكة .

وعند ما وقع نظرها عليه ، هطلت الدموع من عينيها وفتحت ذراعها
قائلة له :

— تعال يا بني ! لقد أنقذت حياة الملك وأنقذت أسرة لوسينيان
وأنقذت الوطن . فلك الشكر من الملك والأسرة والوطن !
والتفّ الشعب حول الملكة ، وأعرض عن الأمير جان الانطاكي
نائب الملك ، الذي عجز عن استرجاع المدينة من الجنوبيين ، فرأت
الملكة أن الوقت قد حان للانتقام منه ، وأرسلت إليه ذات يوم جماعة
من أنصارها ومريديها ففتكوا به ، وحملوا إلى الملكة رأسه على طبق
من الفضة !

ودخلت الملكة على ابنها بطرس الصغير ويدها رأس عمه يقطر
دماً ، وقالت :

— بني ! لقد قتلت عمك هذا لأنه تأمر مع أعدائنا على قتل
أبيك والاستئثار بالسلطة !

فنظر الملك الطفل إلى رأس عمه الدامي ، وانتفض في مكانه فزعاً
صارخاً :

— أماء ! ما أفظع هذا . !
لكن الملكة لم تؤثر فيها صرخة ابنها ، فألقت بالرأس على الأرض
ووضعت قدمها عليه قائلة :

— هذا جزاء الخونة الذين يقفون في سبيلي !



كان يجب على الملكة اليونورا أن تقف عند هذا الحد ، وأن تسهر بعد ذلك اليوم على ابنها ، وتحسن السياسة مع الأشراف والأعوان والقواد ، للاحتفاظ بعرشها ، وصيانة ملكها .

لكنها كانت بعيدة المطامع كثيرة المطالب ، فأرادت أن تكون في الجزيرة حاكمة بأمرها ، لا يعترضها معترض ، ولا يقف في وجهها مرشد ، فساءت أحوال المملكة ، وعم الاستياء جميع طبقات الشعب ، فأوفد القبرصيون إلى الملك بطرس مندوباً من قبلهم ، يطالب منه إما التنازل عن العرش لسواه ، وإما إبعاد أمه الملكة عن الجزيرة !

فاضطر الملك الصغير إلى إجابة الشعب إلى طلبه ، وأصدر أمره بالقبض على أمه ، ونقلها إلى سفينة أقفلت بها ليلاً بعيداً عن سواحل الجزيرة ، إلى وطنها الأول ، إلى بلاد الأراجون القصية . . .

وقفت الملكة اليونورا في تلك الليلة التي احتجبت فيها النجوم وراء السحب الكثيفة ، على ظهر السفينة التي أقفلت بها عن بلاد كانت فيها الأمرة الحاكمة ، وجعلت تندب حظها ، وتفكر فيما آل إليه أمرها ، وتذكر تلك الحوادث التي تخللت حياتها . . . وتبكي بكاء مرّاً !

رأت زوجها يخونها . . .

ورأت نفسها تخون زوجها . . .

ورأت الأشراف يتآمرون عليها وعلى زوجها ويخونون الاثنين
معاً . . .

ورأت الأمير الانطاكي ، شقيق زوجها ، يخون أسرته ويكيد لها
في الخفاء . . .

ورأت ابنها يخونها ويأمر بإبعادها عن عرش زوجها . . .

رأت الخيانة مجسمة في كل من أحاط بها - وفي نفسها . . .

ولم تظهر من خلال ذلك كله غير صورة واحدة نقية طاهرة ، صورة
ذلك الشاب الفقير النبيل ، ديمتري دانيلوس ، الذي لم يكن ممن ينتمون
الى الأسر الشريفة ، والذي كان يحمل بين جنبيه عواطف تفوق سموًا
عواطف النبلاء والأشراف والملوك !

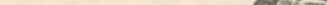
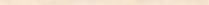
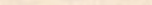
وبكت أيضاً - وابتعدت بحارة السفينة عن تلك الملكة الحزينة
الكثيبة الباكية ، احتراماً لها وعطفاً عليها !

وفي اليوم التالي ، بحثت البحارة عن الملكة اليونورا فلم يلقوها لها
على أثر . . .



هذا ما جاء في الكتيب اليوناني عن الملكة اليونورا ، التي أحبت
وملكت فلم تحسن التصرف في حبها وملسها - وكانت نهايتها المحزنة
أن راحت طعاماً للأسماك في خضم البحار !

10



و کتب و رسائل

١٢٣٤٥٦٧٨٩١٠١١١٢١٣١٤١٥١٦١٧١٨١٩٢٠٢١٢٢٢٣٢٤٢٥٢٦٢٧٢٨٢٩٣٠٣١٣٢٣٣٣٤٣٥٣٦٣٧٣٨٣٩٤٠٤١٤٢٤٣٤٤٤٥٤٦٤٧٤٨٤٩٥٠٥١٥٢٥٣٥٤٥٥٥٦٥٧٥٨٥٩٦٠٦١٦٢٦٣٦٤٦٥٦٦٦٧٦٨٦٩٧٠٧١٧٢٧٣٧٤٧٥٧٦٧٧٧٨٧٩٨٠٨١٨٢٨٣٨٤٨٥٨٦٨٧٨٨٨٨٩٩٠٩١٩٢٩٣٩٤٩٥٩٦٩٧٩٨٩٩١٠١١١٢١٣١٤١٥١٦١٧١٨١٩٢٠٢١٢٢٢٣٢٤٢٥٢٦٢٧٢٨٢٩٣٠٣١٣٢٣٣٣٤٣٥٣٦٣٧٣٨٣٩٤٠٤١٤٢٤٣٤٤٤٥٤٦٤٧٤٨٤٩٥٠٥١٥٢٥٣٥٤٥٥٥٦٥٧٥٨٥٩٦٠٦١٦٢٦٣٦٤٦٥٦٦٦٧٦٨٦٩٧٠٧١٧٢٧٣٧٤٧٥٧٦٧٧٧٨٧٩٨٠٨١٨٢٨٣٨٤٨٥٨٦٨٧٨٨٨٨٩٩٠٩١٩٢٩٣٩٤٩٥٩٦٩٧٩٨٩٩

توبة الأمبراطورة

دخلت الوصيصة على الامبراطورة « تيودورة » وانحنت الى الأرض
 ثم تقدمت وهمست في أذن مولاتها هذا الاسم : « ميخائيل ! »
 فرفعت تيودورة رأسها ، وسألت :
 — الكبير أم الصغير ؟
 فأجابت الوصيصة :
 — الكبير يا مولاتي . . . ويبدو عليه القلق والاضطراب .
 — ليدخل . . .

خرجت الوصيصة فنهضت تيودورة من مكانها وقادت الفهد الأليف
 الذى كان نائماً على قدميها إلى حجرة مجاورة ، ثم عادت إلى الوسائد
 الملقاة أمام النافذة المطلة على البحر ، واستلقت عليها . . .
 ودخل في تلك اللحظة شاب في الثلاثين من العمر ، طويل القامة ،

أزرق العينين ، أشقر الشعر . .

جنّا « ميخائيل » على ركبتيه ووضع قبلة حارة على اليد التي بسطتها
له الامبراطورة .

لكنها ما لبثت أن فتحت له ذراعها ، فألقى بنفسه في أحضانها ،
وغمر وجهها وعنقها وصدرها بالقبلات الغرامية الملهمة .

ثم أجهش فجأة بالبكاء ، وقال :

— أممكن هذا . ؟ . أصبح أنك تعرضين عني ، وترغبين إلىّ في
أن أبتعد عن هذا القصر ولا أعود إليه بعد الآن ؟ ماذا طرأ على جننا ،
وأية عاطفة حلت في قلبك محلّ ذلك الغرام ؟

فأخذت تيودورة رأس الشاب بين يديها ، وقالت :

— ميخائيل . . اصغ إلىّ : لقد أحببتك ولا أزال أحبك . . .
يا حبيبي ! لكن في الحياة ظروف وحالات ينبغي للانسان أن يحترمها
ويحسب لها حساباً . . . لقد أحببتك قبل أن أدخل هذا القصر ، وأعتلى
عرش بيزانطة ، وأصبح أمبراطورة وزوجة امبراطور ! وحافظت على
ذلك الحبّ فيما بعد ، ومهدت لك السبل لكي تأتي خلصة إلى مخدعي
الامبراطوري ، وتقضى معي الأيام والليالي . . . إلى أن حدث حادث
قد تكون عاقبته وخيمة علينا . . .

— أي حادث هذا ؟



تيودوره على عرشها

- جاءني أخوك منذ أيام ، وطلب المثل بين يدي ، فأذنت له بذلك ، ظناً مني أن القادم هو أنت بنفسك ، لأن أخاك يدعى مثلك ميخائيل . . .
- وماذا كان يطلب ؟
- جاءني يعرض على حبه . . . مثلك أيضاً ؟
- الخائن . ! . وماذا قلت له ؟

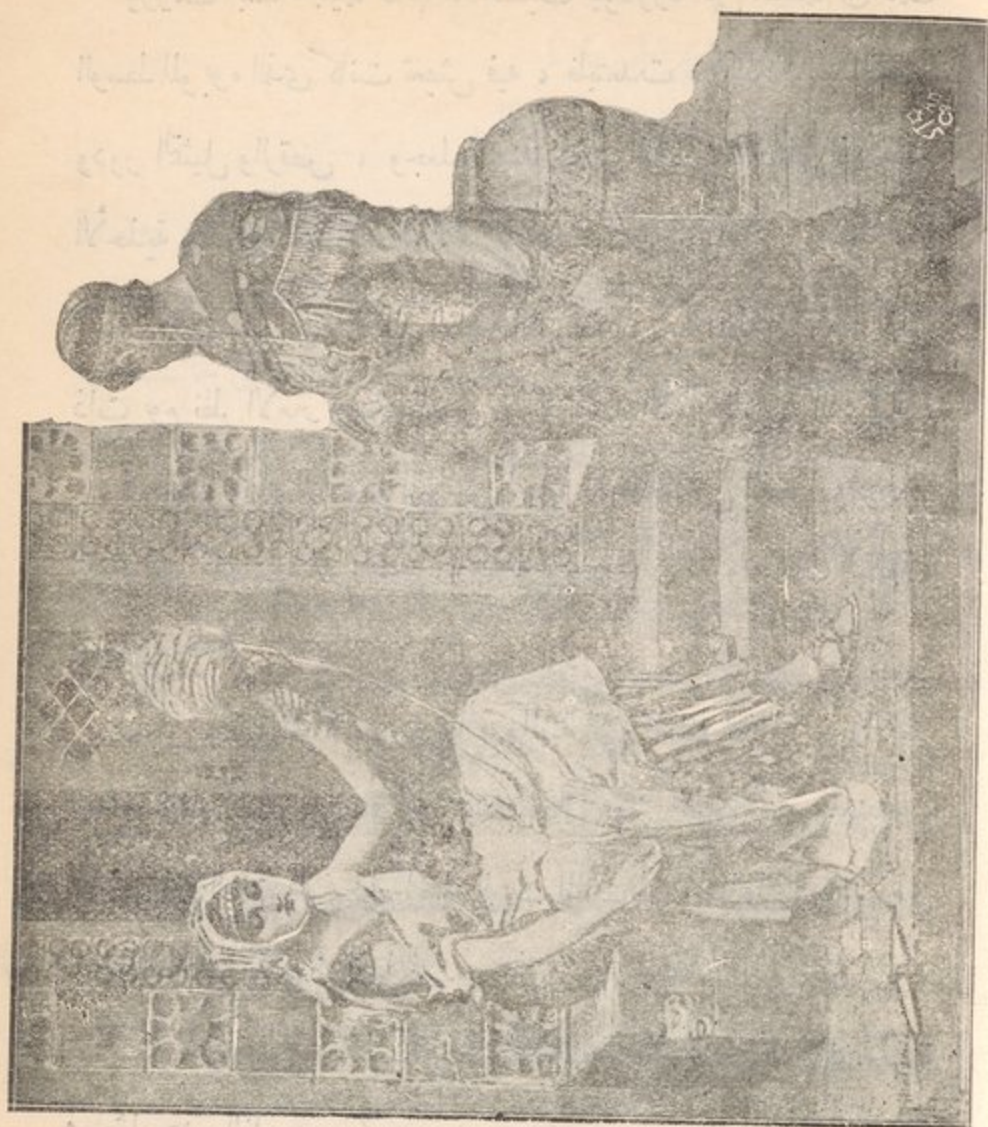
-- طرده من القصر طرداً . فخرج من عندى غاضباً مهدداً .
قائلاً إنه سيشيع فى المدينة خبر علاقتنا الغرامية ، ويطلع عليها الامبراطور
قبل الرعية !

— ياله من مجنون أعمى !
— فبعد هذا الحادث ، ينبغى أن تنقطع عن الحىء إلى هذا القصر ،
إلا إذا . . . إذا . . .
— إذا . ؟ .
— إلا إذا عدل أخوك عن عزمه . . . أو زال من عالم الوجود !
— سأقتله الليلة . ! .

وغادر « ميخائيل الكبير » كما سمته تيودورة حجرة الامبراطورة
العاشقة ، وهو يردد قائلاً : « سأقتله الليلة ! »



بدأت تيودورة حياتها راقصة فى ملعب ، وهى ابنة « اكاسيوس »
مروض الوحوش . أما أمها فان اسمها مجهول وسيظل إلى الأبد مجهولاً .
مات أبوها وهى صبية ، فضاقت الدنيا فى وجهها . وبحشت عن الرزق
وسعت إليه فى مختلف الأحياء وبشتى الأساليب ، فكانت تلتقطه حيثما
تجده ، فى القصور والأكواخ والشوارع والحانات والمواخير .
أما الحب فانها لم تعرفه ، ولم تدع له سبيلاً للتسلط على قلبها ، بل



الامبراطورة تيودوره تغزل الصوف

كانت تتاجر بمحاسنها وجمالها كما يتاجر البائع بالسلع ، فيعطيها لمن يدفع
أكثر من سواه !

ورزقت ابنة جميلة كأمها ، فخشيت تيودورة على الطفلة في ذلك
الوسط الموبوء الذي كانت تعيش فيه ، فابتعدت عن الملاهي والملاعب
ودور التمثيل والرقص ، وجعلت منذ ذلك الوقت تشتغل في صنع
الأحذية والأزياء النسائية . . .

وترددت على بيتها نساء الطبقة الشريفة في بيزانطة ، ووقع عليها
ذات يوم نظر الأمير يوستينيانوس ، ولي عهد الامبراطورية الشرقية .
فأحبها ، وهام بها ، ونسى من أجلها ما عداها من النساء ، وهجر
الفتاة التي كان أبوه قد أعدها زوجة له ، وأراد أن يتزوج تلك البائعة ،
تيودورة الجميلة .

لكن ماضى المرأة ، وسيرتها ، والمهنة التي كانت تحترفها ، والاسم
الملطخ بالعار الذي تحمله ، كل ذلك حال دون رغبة الأمير وأمنيته ،
لأن قوانين الدولة تحرم على أمراء البيت المالك أن يختاروا زوجاتهم من
غير البيئة التي ينتمون إليها .

لكن يوستينيانوس لم يكن من أولئك الرجال الذين تتولاهم الحيرة
في مثل هذه الظروف .

سنّ قوانين جديدة محلّ القوانين القديمة ، وأجاز للأمرء أن
يتزوجوا من يشاءون من النساء ، حتى ولو كنّ من الممثلةات أو
الراقصات أو البغيات !

وما جلس يوستينيانوس على عرش بيزانطة إلا وتيودورة بجانبه ،
وعلى رأسها تاج الامبراطورية !



ظلت « الامبراطورة » تحن إلى حياة « الراقصة » وظلت تيودورة زوجة يوستينيانوس الامبراطور تذكر بالحسرة والألم تلك الحرية التي كانت تتمتع بها تيودورة البغي ، فقامت في نفسها ، وهي جالسة على العرش ، رغبة شديدة في العودة إلى سيرتها الأولى ، إلى التهلك ، إلى اشباع شهواتها ، والتمرغ في أحضان الحب المحرم كسابق عهدها به .

فأرسلت في طلب عشاقها الأقدمين ، الواحد بعد الآخر ، وأدخلتهم خلصة إلى قصرها ، فتحول مخدع الامبراطورة إلى مفسدة يلتقي فيها طلاب الهوى ، وعشاق الجمال ، ورواد الملذات !

وكان « ميخائيل » أحد أولئك المغرمين المعجبين بتيودورة ، ومن أسعدهم حظاً لديها ، وكان أخوه الصغير أيضاً من المترددين على القصر . لكن الامبراطورة كانت تحذر كلا من الاثنين من أن يذكر للآخر شيئاً عن علاقته بها . . .

وحدث ذات يوم أن علم الأخ الصغير أن أخاه الكبير يتمتع لدى الامبراطورة المتهتكة بحظوة أوسع من حظوته ، فجاءها مرغياً مزبداً ، وهددها بافشاء سرها إذا لم تطرد أخاه وتقفل في وجهه أبوابها . فخشيت تيودورة سوء العاقبة ، على أثر ذلك الحادث ، وراحت

تغرى الأخ وتحرضه على أخيه ، لكي ينقذها منه ويحول دون وقوع
الفضيحة في البلاط .



و بعد يومين كانت تيودورة جالسة مع فهدا الأليف ، أمام تلك
النافذة التي كانت تحب الجلوس أمامها ، وإذا بالوصيفة ، المطلعة على
جميع أسرارها ، تدخل عليها وتهمس في أذنها مرة أخرى ذلك الاسم :
« ميخائيل ! »

ضحكت الامبراطورة في هذه المرة ، وقالت :

— الكبير ؟ .. إننى فى انتظاره ... ليدخل !

فدخل العاشق ، كالح الوجه ، مقطب الجبين ، وقال :

— قضى الأمر ... والاسماك تلتهم جثته منذ الأمس !

فنهضت تيودورة من مكانها ، واقتربت من العاشق القاتل ،
وأمسكت بيديه ، وحدقت فيه البصر ، وقالت :

— أقتلته ؟ .. حقاً ؟

— نعم ، وألقيت جثته فى البحر !

فطوّقت تيودورة عنقه بذراعيها ، وقدمت له شفيتها ، فالتصقت
عليهما شفتان تنبعث منهما حرارة النار !

وكانت قبلة لم يذق عاشق مثلها !

وبينما الاثنان مستلقيان على الوسائد الحريرية أمام النافذة المطلة
على البحر ، يتداعبان ويتحدثان ، حانت من المرأة التفاتة نحو يد
عشيقتها ، فخيل إليها أن لطفة حمراء لا تزال باقية على كفه !



الامبراطورة تيودورة

فنظرت إلى اليد الأخرى ، وإلى وجهه ، وإلى عنقه . . . فخيل إليها
أيضاً أن بقعاً حمراء تلتطخ اليد والوجه والعنق ، وأن الدم الذى سفكه
هذا العاشق القاتل - دم أخيه البريء - لا تزال آثاره باقية ، مطبوعة ،
تشهد على المجرم الأثيم وتتهم من حرضه على القتل !
كانت تيودورة قد ارتكبت قبل ذلك اليوم جرائم كثيرة ،
وانغمست فى الدماء والملاذات المنكرة ، لكنها لم تشعر مرة واحدة بأن
هناك ضميراً يؤنب المذنب على ذنبه .

أما اليوم فان ضميرها قد صحا من سباته ، وهى تشعر وتحس
بوخره المؤلم !

فاستعرضت أمامها ذلك الماضى الثقيل بالآثام والمنكرات والخيانات .
وهاهما ما أقدمت عليه فى حياتها من أعمال مخزية معيبة ، وسمعت
صوتاً داخلياً يهيب بها :

— كفى شروراً أيتها المرأة الدموية الفاجرة ! لقد آن الأوان للتوبة
فكفرى عن ذنوبك وآثامك إن الله يغفر للتائبين !



ظلّ العمال يشتغلون ستة شهور كاملة فى بناء تلك الدار الواسعة
الأرجاء ، القائمة على ضفاف البوسفور ، التى أعدتها الامبراطورة تيودورة
مليجاً لخمسةائة من النساء الساقطات ، اللواتى حملتهن على التوبة والندم ،
فعدلن عن سلوكهن الشائن ، ومفاسدهن السابقة ، وأقمن فى تلك الدار،

في رعاية الامبراطورة والامبراطور .
 نبذت تيودورة ماضيها ، بعد ذلك الحادث المشؤم ، الذي راح فيه
 أخ شهيد الحب الأثيم ، قتيلا بيد أخيه ، ولم يكفها ذلك بل جعلت
 تدعو البغيات والممثلات والراقصات إلى نهج منهجها ، وسلوك السبيل
 السوى الذي سلكته .

وكان « ميخائيل » العاشق القاتل ساعدها الأيمن ورفيقها في
 ذلك الجهاد المشكور ، بعد أن تاب مثلها ، وعزم من جهته على أن
 يكفر عن سيئاته الماضية .

وبعد أن شيدت تيودورة تلك الدار الفخمة ، على ضفاف البوسفور ،
 جمعت فيها خمسمائة من الممثلات والراقصات والنسوة المتهتكات ،
 أقامت صديقتها « ميخائيل » مراقباً على الدار ، من قبلها ومن قبل
 الامبراطور يوستينيانوس زوجها .

وذهبت إلى أبعد من ذلك ، فجعلت تبحث لأولئك النسوة
 التائبات عن أزواج بين خدم القصر وجنود الحرس ، وترغم كل من
 أراد الزواج من أتباعها على اختيار رفيقة حياته من ساكنات
 « دار التوبة » كما كانت تسميها !

وقد جلس الامبراطور يوستينيانوس على عرش بيزانطة ثمانية
 وثلاثين عاماً ، من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ للميلاد ، وكان في خلالها
 من الملوك المنصفين العادلين .

لكنه ظلّ جاهلا ذلك الحادث الذي حمل زوجته على تشييد تلك
 الدار - دار التوبة - كما ظلّ جاهلا لكثير من الأسرار التي تضمها
 جدران قصره .
 وبعد موت تيودورة ، بكأها « ميخائيل » عشيقها وصديقها
 ورفيقها في جميع أطوار حياتها ، وأفشى ذلك السرّ الرهيب وقصّ على
 الناس قصته ومقتل أخيه وتوبة الامبراطورة !



السلطان في القفص

« . . . اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّز من تشاء ، وتذلّ من تشاء . . . »
 الحياة تجديد ، وسنة العمران تقتضي الهدم والبناء . . .
 انهزمت جيوش ، وانقرضت أمم ، واضمحلت دول ، وقامت على
 أنقاضها دولة الأتراك الفتية . . .

. . . ١٣٧٨

تدفقت جحافل السلطان مراد الأول تدفق السيل المزبد الجارف ،
 فأغرقت في خضمها سهول الأناضول ، واكتسحت مدنه العامرة ،
 ودكت جباله وحصونه ، وجعل الغزاة الظافرون يتطلعون إلى
 القسطنطينية ، ويطمعون في الاستيلاء عليها والقضاء على دولة الأروام فيها .

وكان يرافق السلطان في روحاته وغدواته ، ابنه البكر الشجاع ،
الأمير بايزيد ، زعيم الفرسان وقائدهم في حومات القتال .
وقعت عليه أنظار « هيلانه » الجميلة ابنة القائد الرومي « ميليناس »
في أثناء مفاوضة بين الرجلين ، على أثر انتصار جديد أحرزه بايزيد
على أعدائه ، فعلق به قلبها ، وهامت تلك الفتاة الشقراء بحب ذلك
الفارس الأسمر .

هجر النوم جفניה ، وساورتها الأحلام ، وغلت في جسمها البض
الفتى مراحل الشهوة ، فلم تعد تطيق صبراً على حمى الغرام .
العقبات كثيرة في سبيل إرضاء تلك الشهوة ، وإجابة دعاء ذلك
الغرام . لكن الحب أعمى ، والمرأة إذا أحبت لا تحكم العقل ولا
تقدر العواقب !

وفي ليلة ليلاء ، تحت ستار ظلام مد لهم حالك ، هجرت هيلانه
أهلها ، ورحلت عن ديارها ، ولحقت بالفتى الاسيوى الذى تسلط على
شعورها وملك قيادها !



... ١٣٨٩

التحمت جيوش الأتراك وجيوش الأفرنج في معركة دموية في
سهول « قاصوى » فسقط مراد الأول في الميدان ، وتناوله المنجل الحاصد
سنبله بين السنابل !

وكان بايزيد على رأس فرسانه ، فالتفت الجيش حوله ، ونادى به الجنود سلطانا خلفاً لأبيه ، وهتفوا باسمه بين صليل السيوف وقرع الطبول .
وتضاعف نفوذ هيلانه الفاتنة !

بعد أن كانت خليعة الأمير سرّاً ، صارت عشيقه السلطان جهراً .
وكانت الفتاة من أمة جبلت نساؤها على المكر والخداع ، ومهرن في طرح الشباك للصيد في الماء العكر ، ونبغن في حبك خيوط المكائد والدسائس .

اختلت هيلانه ذات يوم بعشيقتها ، ودار بين الاثنين حديث مقتضب :
— رأيت أمس حلمًا مريعاً . . . أخشى أن يتحقق . . . وأرتعد خوفاً عليك يا حبيبي !

— أىّ حلم هذا ؟

— رأيت أخاك « يعقوب » يثب عليك وأنت راقد في فراشك ، فيقطعنك بنخجره ، لكي يخلوله الجو من بعدك ، ويتبوأ العرش الذي أنت جالس عليه !

— أضغاث أحلام !

— لا تقل هذا . . . فما أكثر الأحلام التي تتحققها الأيام !

— وماذا تريد أن أصنع ؟

— أن تبطش بهذا المزاحم المزعج ، قبل أن يبطش بك !



السلطان بايزيد

وفي مساء ذلك اليوم ، مات الأمير يعقوب ، شقيق السلطان
بايزيد ، خنقاً في حجرته . ! .

* * *

وبعد أيام دار بين العشيقين حديث آخر :

— حلمت أمس حلمًا يخيفني أكثر من الحلم السابق .

— قصيه عليّ .

— رأيت « مانويل » ابن الملك « جان باليولوج » سيد الأروام

وحاكم القسطنطينية ، يقودك مكبلاً بالحديد إلى داخل أسواره ،
ويلقيك حياً طعاماً للكلاب !

— وماذا يتحتم عليّ ؟
 — أن تحتطف هذا الأمير من قصر أبيه ، وتحتفظ به رهينة بين يديك !

— وكيف السبيل إلى ذلك ؟
 — دعني أفعل . . . سأجيئك به إلى مضربك صاغراً ذليلاً !
 كانت هيلانه تحب مانويل ، لكنه أعرض عنها ، فسعت إلى الانتقام منه ، واغتنمت تلك الفرصة السانحة .

دخلت مدينة الأروام ، ولفقت لهم حديثاً كله كذب في كذب ، فحملت الأمير مانويل على الخروج بشرذمة من رجاله ، فوقع الجميع في كمين أقامه الأتراك ، وجيء بالشاب أسيراً مقيداً إلى مضرب بايزيد . فاضطر ملك الأروام إلى دفع جزية وافتداء ولده بأموال كثيرة .



. . . ١٣٩٦

سحق السلطان بايزيد جيوش الأفرنج سحقاً في واقعة نيكوبوليس ، وعاد إلى وضع الحصار على القسطنطينية ، مقسماً ألا يذوق راحة إلا بعد أن يقتحم أسوارها .

لكن عدواً جديداً لم يكن بايزيد يحسب له حساباً ، ظهر فجأة وراء جيوش الأتراك المظفرة ، وهدّد مملكتهم بما كانوا يهددون به الممالك . ذلك العدو هو تيمورلنك الفاتح التتري ، الذي خضعت له شعوب

الشرق قاصيها ودانيها ، والذي قيل له إن هناك ، في بطاح الأناضول ،
سلطاناً يدعى أنه أشجع الشجعان ، وأفرس الفرسان ، فجدّ ساعياً إليه
طالباً منازلته في الميدان .

فطن بايزيد إلى الخطر الداهم ، فجمع أخصاءه وأمرأه جيشه ، وأصدر
إليهم أوامره برفع الحصار عن مدينة الأروام ، وحصر جهودهم في صدّ
الغزاة ، وطردهم عن أطراف الأناضول .

*
* *

. . . ١٤٠٢

أقره ! . . . مدينة الذكريات . . . قلب الأناضول النابض . . .
ميدان الحوادث الجلييلة ، والمعارك الفاصلة ! . .

في ذلك السهل المنبسط ، بين تلك الآكام والألنجاد ، أعدّ بايزيد
نفسه للقتال ، وربض منتظراً قدوم المهاجمين .

فوفد عليه تيمور لنك بأربعماية ألف فارس يشرعون الرماح ، وستائة
ألف راجل يشدون إلى الأقواس النبال .

ودارت الدائرة على الأتراك ، فوقع السلطان أسيراً ، وتشتت رجاله
لايلوون على شيء . . .

وسالت الدماء ، وارتفع العويل ، وتصعدت من الصدور
الزفرات . . .



جاء بالمغلوب إلى الغالب ، فأكرمه وأجلسه إلى جانبه ، وسأله :
— ماذا كنت تصنع بي لو ظفرت بجيشي ورأيتني الآن أسيراً
بين يديك ؟

فأجاب بايزيد :
— كنت أحبسك في قفص من حديد ، وأطوف بك في
ملكتي . . .

فقال تيمورلنك :
— وهذا ما سأصنعه بك ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً !
وعاد الفاتح إلى بلاده ، ومعه السلطان في قفص !



. . . ١٤٠٣

مضت سنة وبايزيد في سجنه الحديدي ، يبكي ملكه الضائع ،
وحرته المسلوقة ، والغىظ يتأكل أحشاءه . . .
سامه عدوه القاسي أنواع الذل والهوان ، وطاف به في أنحاء
ملكته ، وعرضه على أنظار رعيته ، وسمح للناس أن ييصقوا في وجهه ،
وأن يوجهوا إليه ما شاءوا من الإهانات .



تيمورلنك

وفي ذات يوم ، دخل على تيمورلنك حاجب ، وقال :

— مولاي . بالباب فتى يطلب المثل بين يديك ، ويقول إنه

غريب عن هذه الديار ، وإن لديه مايفضى به إليك سرّاً .

فأمر تيمورلنك بادخال ذلك الغريب . . .
 وإذا بفتى أمرد، بهى الطلعة، يتقدم نحوه خاشعا، ويلقى بنفسه
 على قدميه باكيا منتحبا :

— من أنت وماذا تريد ؟

— أنا . . .

تردد الفتى لحظة، ثم نزع ثوبه عن صدره وقال :
 — لست كما تظن أيها المولى، إنما المسائل أمملك فتاة مسكينة،
 جاءت تطلب منك رجاء هو آخر رجاء لها في الحياة . . .
 فانتفض تيمورلنك وقال :

— افصحى . . .

— أنا حبيبة السلطان بايزيد، أسيرك المحبوس في قفص . . .
 جئت لأشاهد حبيبي للمرة الأخيرة . . .
 فهض تيمورلنك، واقترب من الفتاة الشجاعة، وقد أكب
 إقدامها، وقال :

— لا أرفض إجابة رجائك . . . إليك ما تطلبين . . .

ونادى حاجبه، وأمره بالسير مع الفتاة إلى حبيبها في قفصه . . .



وصلت هيلانه أمام ذلك الذى أحبه وخانت عشيرتها من أجله،
 فأجهشت بالبكاء وأبكت الأسير معها . . .

ثم رفعت رأسها ، وقد لمع في عينيها بريق لم يعهده بايزيد فيهما من قبل ، وقالت له بصوت ثابت ، ولهجة صارمة :

— بايزيد . وصلت إلينا أخبارك ، وعلمنا بما ألحقه بك هؤلاء البرابرة من صنوف العذاب وهاقد جئتكم اليوم حاملة إليك رجاء عشيقه لاتطيق العيش بعيدة عنك . بايزيد ، لا أمل في إقناذك من مخالب هؤلاء الوحوش . فضع حداً للعار الذي تعيش فيه . اقطع جبل حياتك بيدك ، مادام عدوك لا يمن عليك بالموت الذي يخلصك من هذا العذاب إننى أنتظر وسأموت معك ، هنا ، على مرأى منك فلم يدعها بايزيد تسترسل فى كلامها ، بل قاطعها قائلاً :

— صدقت ياهيلانه . الموت خير من الحياة الذليلة . الوداع يا حبيبتى الوداع !

ووثب السلطان الأسير على حديد قفصه ، فضرب رأسه عليه ضربة فجأت جمجمته ، وسقط يتخبط فى دمه !
فصاحت هيلانه صيحة مفجعة ، وتناولت خنجرها وأغمدته بين ثدييها



وأمر تيمورلنك بدفن الجثتين فى لحد واحد
فتعانق الحبيبان عناقهما الأخير ، بين أحضان الثرى وفى سكون الموت !

فتاة أركول

جلس القواد في مضرب بونابرت ، القائد الشاب ، في السهل المنبسط على مقربة من قرية ريقولى الإيطالية . وجعل كلّ منهم يقوم بالعمل الذى عهد به إليه : هذا يرسم خريطة تقلا عن مذكرات بونابرت ، وذلك يعيد النظر في حساب فرقته . وكان القائد العام يوجب إتقان جميع الأعمال ، الأمر الذى أكلاً أعين الضباط والمتعهدين حذراً واحتراساً .

١٧٩٧ . . . سنة خطها جيش الثورة الفرنسية بأحرف من نار على صفحات التاريخ .

كان الجيش الذى سيرته الجمهورية لغزو إيطاليا في حالة يرثى لها ، وكان الجنود بعيدين عن وطنهم ، معتصمين في جبال « الأبنان » بين الصخور والآكام ، وليس لديهم من الطعام إلا ما يسدّ به الرمق ،

ومن الملابس إلا مايستر عورتهم ، ومن السلاح بنادق قديمة وثلاثون مدفعا ، وعددهم لا يربو على الثلاثين ألفا .

وكان أمامهم ستون ألفا من النساء وبين ومثنا مدفع . . .

فثبتوا لهم رغم ذلك ، منتظرين انقاذهم من هذا المأزق الصعب بتعيين قائد كفء ، يعيد لهم عزهم ومجدهم العتيق ، حتى أرسلت لهم الجمهورية بونابرت ، وهو لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من العمر .

جاءهم هذا القائد الشاب ، فلاقوه جميعهم بفتور ووجوه عابسة ، وهزأوا به عند ما رأوه نحيل الجسم ، لا يستطيع الثبات على متن جواده .

ولكن ما علم أن تجلت لأعينهم مواهب القائد العظيم تجلى الشمس الباهرة ، فأخذ بعزيمة ماضية ، وإرادة نافذة ، وجهاد مستمر ، في إصلاح ما أفسدته الأيام ، وتنظيم ما أخلت به الظروف والاحوال .

عالج الرجل نفوس جنوده اليائسة ، ملتصقا إلى قلوبهم مسالك الأمل والرجاء ، مطلقا أعنة خيالهم إلى مستقبل مجيد زاهر ، يمنهم بطيب الأمانى وحلو الهناء ، حتى اكتسب أفئدتهم ، وملاك قيادهم ، فصرفهم إلى ملتصقه وبغيته في مقاتلة الأعداء ، فاندفعوا خفافا سراعاً شجعاناً ، لاتأخذهم مخافة ، أو ينالهم جبن ، أو يلوى بهم روع ، ملئت بمقاتلتهم الارضاء أو أمطرتهم بهم السماء . . .

هكذا كانوا في الشهر الأول من سنة ١٧٩٧ ، بفضل ذلك القائد العظيم ، تنتقلون من ميدان إلى آخر ، لاقتصر لهم عزيمة ، أو تقعد بهم

سامة ، يهبطون وهداً ، و يصعدون نجداً ، مقاتلين مجاهدين ، وأعلام النصر خفاقة فوق رؤوسهم .

كانت جحافلهم تجتاز ظافرة تلك الربوع التي شاهدت انتصارات روما ، وتلك الجبال والأودية التي طالما رددت صدى هتاف الفيالق الرومانية ، وأشجار الغار التي أدلت إلى القياصرة أوراقها أكاليل ، تطوق أغصانها جباههم المرتفعة عظمة وجلالا .

اندفع جيش الثورة على المدن الإيطالية ، يقوده الشاب الثائر بونابرت ، فلم يحل دونه جيش حائل إلا ومزقه تمزيقاً ، وكانت السيدات يتقدمن ويمسكن بأعنة الخيول ، فتضمد على صدورهن جراح الجنود الدامية .

هناك ، في إحدى تلك المعارك الهائلة ، وجد الكابتن « دوروك » الفتاة « ماري » البائعة في الجيش ، فأحبها وأحبته ، وتعاهد العاشقان على ازواج عند ماتضع الحرب أوزارها .

*
* *

كان القواد منصرفين في مضرب القائد ، كل إلى عمله ، وإذا بصوت رخيم ينادي ، بل يهمس من الخارج :

— كابتن دوروك . . . كابتن دوروك . . .

رفع الضابط رأسه وأجاب :

— من المنادى ؟

فضحك أحد الضباط وقال له مازحاً :

— سرعان مانسيتهما . . . ألا تعرف صوت حبيبتك ؟

ولكن الصوت أعاد الكرة :

— أنا يا دوروك . . . أنا ماري !

— ماري ؟ تعالى . . . ادخلي . . .

نهض دوروك مسرعاً إلى الباب ، فرفع السدافة ، وظهرت الفتاة بثوبها العسكري . . .

— أوحيد أنت هنا ؟

ولما وقع نظرها على القواد الآخرين ، ترددت في الدخول قائلة لخطيبها :

— ظننتك منفرداً !

لكنه أمسك بها ، ونهض الباقون وقد أنهمكهم التعب ، فأحاطوا بالفتاة ، وأخذ كل منهم يقنعها بالبقاء :

— ادخلي ياسيديتي . . . ابقى فلا شاغل عنك . . . لن يعود القائد العام قبل نصف ساعة . . .

زال حينئذ اضطراب الفتاة فدخلت ، وقدم لها أحدهم مقعداً خشبياً فجلست ، لكنها أرسلت أنه ألم ، ووضعت يدها على كتفها ، فانتفض دوروك وسألها :

— مابك ؟ أَمريضة أنت ؟

فأجابته والألم باد على وجهها :

— كلا . . . لكن جرحى القديم قد انتقض على ، فذهبت

إلى طبيب الفرقة للمداواة ، وها أنا عائدة من خيمته .

فسألها الضابط « لافاليت » وكان حديث العهد في الجيش :

— أجريحة أنت ياسيدتى ؟

فردّ عليه دوروك قائلا :

— نعم هى جريحة . . . وعلى أثر إصابتها بذلك الجرح عرقها واتخذتها

خطيبة لى .

فنهض لافاليت ، وكان لا يزال جالسا إلى مكتبه ، وصافح الفتاة

مصالحة الزميل للزميل ، والجندى للجندى :

— والآن ، لى رجاء أفضى به إليك ياسيدتى . إننى حديث العهد

في هذا الجيش ، ولم يذكر اسمك أمامى قبل الآن . فأرجو أن تقضى علينا

قصتك ، وتخبرينا خبرك ، فى تلك الموقعة التى أصبت فيها بهذا الجرح .

فتردّدت الفتاة ، لكن القوادر ألحوا عليها ، وأدعم دوروك طلبهم

برجائه ، فنهضت « مارى تاردى » وقد أنستها ذكرى تلك الموقعة

الهائلة ما تقاسيه من ألم مبرّح ، وقصّت على أولئك الأبطال ما حدث

لها فى معركة « أركول » :

— كان الجيش يحاول اجتياز جسر أركول بقيادة بونابرت ،

والنساويون يمعانعونه إياه ، مستعينين عليه بما حضرهم من آلات
الدفاع وأدوات الهلاك ، فقصفت فينا رعود مدافعهم ، واقتضت علينا
صواعق قنابلهم ، وأمطرتنا شظايا رصاصهم وحديدهم ، وكنا نحن
النساء اللاحقات بالجيش قد انتحينا ناحية من ميدان القتال ، ننظر
إلى الجنود في هجومهم ووثباتهم ، ونشاهد جمالهم وعظمتهم في ثوراتهم
وغضبائهم ، وإن هي إلا ساعة ، وقد شغل عنا الجميع وأصبحنا في عزلة
عنهم ، حتى طلعت علينا شرذمة من النساويين تريد مفاجأة رجالنا من
الوراء والإحاطة بهم ، فصحت بصويحباتي ، وكنت أولى من أخذتهم
عيني منادية : يا للأعداء ! فأسرعن إلى التقاط بنادقهن ، وانتظمن
صفاً متساوياً مرصوفاً قبالة المهاجمين ، وتماسكن لهن سداً منيعاً . . .

فصفق القواد استحساناً وإعجاباً ، واستطردت ماري في حديثها :

— وواصلناهم برصاصنا الفتاك ، يتناولهم كالمنجل الحاصد ، حتى
أزحنا أحياءهم عن مراكزهم ورددناهم إلى مقرهم خائبين . وكان الخبر قد
بلغ الجيش فأسرع دوروك إلينا برجاله . . . وكنت قد أصبت في أثناء
القتال بجرح بليغ في كتفي . . .

وهنا توقفت ماري عن الكلام ، فالتفت دوروك إلى أصحابه

وقال :

— وصلنا إليهن فرأينا يرافق عشرة من نساينا يطاردن المئات من
رجالهم ، وشاهدنا فيهن عظمة أمهاتنا وفيهم جبن آبائهم ، وكانت

عزيتى مارى فى مقدمتهم على تلك الراية ، كما كان بونابرت فى
مقدمتنا على جسر أركول . . . فى تلك الظروف رأيت مارى للمرة
الأولى ، وفى تلك المعركة الدموية التى انتهت بانتصارنا انتصاراً باهراً ،
وبهزيمة الأعداء هزيمة شنيعة ، وضعت على جبين هذه الفتاة القبلية
الأولى . ومنذ ذلك الحين أطلق عليها الجيش لقب « فتاة أركول »
وبونابرت نفسه لا يناديها باسم غير هذا .
فهنا القواد رفيقهم وخطيبته ، وهتفوا هتافاً عالياً لمارى الشجاعة
الباسلة - « فتاة أركول » .



انتهت معركة « ريقولى » بانتصار جديد أضافته جيوش الثورة إلى
انتصاراتها السابقة ، ووقف القائد نابوليون بونابرت فوق راية تشرف
على ميدان القتال ، وجعل القواد يقدون عليه مهنيين ، والجنود يمدحون
أمامه منشدن الأناشيد .

وبينما هو كذلك ، يحيط به الضباط من أركان حربه ، وإذا
بجنديين يحملان جثة ملفوفة فى علم ممزق ، يمران على مقربة منه ،
فناداهم سائلاً :

— من الجريح ؟

فأجابه أحدهما :

— هو قتيل يا جنرال !

— من هو ؟

— فتاة أركول !

فادلهم وجه القائد ، والتفت إلى أركان حربه باحثاً عن دوروك ،
فراه واقفاً في مكانه لا يبدى حراكاً ، وقد وقع عليه هذا النبأ المقتضب
وقع الصاعقة . فتقدم إليه بونابرت ، وأخذ بيده ، وأشار إلى الجنديين
بأن يقتريا بجثة الفتاة ، فوضعها أمام قواده ، وحيها التحية العسكرية ،
وقال :

— دعوها هنا ، لأنها فتاة شجاعة ، ويجب أن تشهد ميتة

الانتصار الذي لم تشهده حية !

وكان قواد الجيش قد أحاطوا برئيسهم ، فوقف فيهم خطيباً ، أمام
تلك الجثة الهامدة ، وفاه بهذه الكلمات التي دونها التاريخ في صفحاته ،
وتناقلتها الألسنة من بعده جيلاً عن جيل :

« أيها الجنود . لقد اندفعتم من أعلى جبال الأبنان كالسيل المتدفق
الجارف ، فعلوتم الحواجز الحائلة ، وجزتم العقبات المعترضة لكم في
منطلق السبل ، لا توقفكم قوة ، أو توهن عزائمكم مشقة ، وقد كانت
المصاعب حجة ، فلم تخنعكم إلى يأس أو جبن أو إحجام ، بل حزتم النصر
بلا مدافع ، وعبرتم النهر بلا مجاز ، وطويتم المفاوز الشاسعة بلا أحذية
ولا نعال ، وضربتم المضارب في العراء تحت مجرة من الأمطار ، وفي مهب

من الرياح ، ووسط تلال من الثلج . . . فان ما تحملتموه من العذاب
والآلام لا يستطيعه إلا جنود الحرية ورافعو لوائها . . . »



ودفنت ماري تاردي في ساحة القتال، وهي ابنة الجندي جان تاردي،
الذي لحق بنابليون بونابرت إلى مصر، وقتل في الثالث والعشرين
من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ في ثورة القاهرة .





خليلة الشاعر

منذ سنة ١٠٢٥ للميلاد ، خضع سكان سلوفا كيا للشعب المجري وظلوا مستعبدين إلى سنة ١٩١٨ .

ومنذ سنة ١٥٤٥ للميلاد ، خضع التشك ، سكان بوهيميا ، لسلطان النمسا وظلوا مستعبدين إلى سنة ١٩١٨ .

لكن الشعبين لم يداخلاهما اليأس ، ولم يتسرب إليهما القنوط ، بل ظلوا في جهاد مستمر ، مدى الأعوام والأجيال ، إلى أن كتب لهما النصر ، وتحققت تلك الأمنى القومية التى علل الشعبان النفس بها : الحرية والاستقلال وتحطيم الاغلال !

دالت دول وقامت دول . واندثرت شعوب وعادت إلى الحياة شعوب . وما أن وضعت الحرب العظمى أوزارها ، حتى رأينا دولة السلوفا كيين والتشك تستعيد كيانها القومى بين الأمم ، وتختار لنفسها

النظام الجمهورى ، وتنتخب رئيساً لها رجلا من عامة الشعب قضى حياته مجاهداً فى سبيل قومه ووطنه : توماس مازاريك !

وأطلق السلوفاكيون والتشيك على جمهوريتهم الفتية اسم «تشكوسلوفاكيا» وجعلوا مازاريك رئيساً عليهم مدى الحياة. وأعادوا إلى «براج» عاصمتهم القديمة التاريخية مجدها السالف وعزّوها الماضى . ومشوا جنباً إلى جنب مع الأمم القوية العظيمة ، فى مدارج الرقى والحضارة ، وقد صهرتهم الحوادث وعركتهم الاضطهادات التى عانوا آلامها ، من عهد أباطرة هابسبورج الأولين ، إلى عهد فرنسوا جوزيف العجوز وشارل الخامس الفتى .



وتاريخ سلوفاكيا وبوهيميا - أو تشكوسلوفاكيا كما يسمونها الآن - سلسلة رائعة دامية من الثورات والاحن والقتال والمذابح . والباحث فى سجلات تاريخ القوم المغمى بعضهم الأمور وجلائل الأعمال ، يعثر على القصة الآتية ، التى تتم عن ما جبل عليه ذلك الشعب الأبى من الأنفة والشمم :

أصدر الأمير فردريك ، حاكم بوهيميا وطاغيتها المستبد ، أمره بالقضاء القبض على «زاتك» الشاعر الشاب ، المندفع فى تيار الوطنية اندفاع أضرابه الشبان فيه ، بسبب نشيد وضعه ذلك الشاعر ، وأهاب فيه ببني قومه أن هبوا من رقادهم أيها النيام ، فقد آن الأوان لخلع نير العبودية

عن أعناقكم ، ونزع أصفاد الذلّ من معاصمكم ، والتطلع إلى الشمس
الوهاجة ، التي تشرق على وطنكم كما تشرق على النسا ، والتي يحقّ لكم
أن تحتلوا مكانكم تحت نورها ، شاء مستعبدوكم أم أبوا . . !

ردّد البوهيميون أنشودة الشاعر في كلّ حذب وصوب ، ولعلّعت
أنعامها في فضاء ذلك الوطن التعسّ المعذب كالبروق الخاطفة ، فهبّ
الشعب كبيره وصغيره ، في المدن والقرى والجبال والحقول ، هبة الرجل
الواحد ، وهاجمت جموعه العاصمة القديمة « براج » ذات التاريخ
العريق والمجد الأثيل ، وانزعت أيدي الثائرين تمثال الأمبراطور
النسوى عن قاعدته ، وألقته في الشارع ، ولوّثته بالوحول والقاذورات !
لكنّ النسويين كانوا على أهبة وعدة لإخماد نار الثورة في البلاد ،
لأنهم كانوا يعلمون مبلغ كره القوم لهم ، ويبتشون في المدن والأقاليم
حاميات كثيرة العدد ، متوفرة العدد ، استعداداً للطوارئ وخوفاً
من المفاجآت .

وأخذت تلك الثورة كما أخذت غيرها من قبل ، بالحديد والنار !
وغصت السجون بالمقبوض عليهم من وجوه القوم وقادة الرأى فيهم ،
وجاور الأبرياء منهم المذنبين .

وكان الشاعر زاتك أوّل من ساقه الجند إلى الحاكم العام النسوى ،
الأمير فردريك ، القاسى الفؤاد .

وما وقع نظر الأمير على الشاعر ، حتى هاجت في صدره كوامن

الحقد . . . وعقارب الغيرة !
 ذلك لأن الشاعر زاتك كان أشدّ أعداء الامبراطورية خطراً ،
 وأبعد الوطنيين البوهيميين حماساً .
 وكان يحبّ المرأة التي كان الأمير نفسه يحبها أيضاً ، وكانت تلك
 المرأة الجميلة الفاتنة تميل إلى ابن جنسها زاتك ، وتفضله على الحاكم
 الأجنبي الدخيل .

نظر فردريك إلى الشاعر الثائر ، وتطايير الشرر من عينيه ، وصاح
 به قائلاً :

— ستلاقي جزاءك يا ابن اللئام في قلعة سبلبرج ، حيث أمرنا باعتقالك
 مدى الحياة !

— وأمر زبانيته بأن يبقوا الشاعر الأسير في قصره إلى أن يبت
 في أمره .

وما كاد الجنود يخرجون بالأسير ، حتى دخل حاجب ، وقال لمولاه
 إن امرأة باكية تصيح أمام باب القصر طالبة المشول بين يديه .

أذن فردريك بادخالها فدخلت ، وإذا به أمام المرأة التي يحبها -
 « زوفكا » الحسنة البارة الجمال - خلية الشاعر زاتك ، وعدوة
 النمساويين ، وصديقة جميع العاملين لخير بوهيميا ولإيقاظ التشك من
 نير الأجانب .

ألقت المرأة نفسها على الأرض ، وأكبت على قدمي الحاكم النمساوي ،

تقبلهما ، وتسكب عليهما الدموع ، وتصمد الزفرات قائلة :

— الرحمة ! الرحمة يا مولاي ! اشفق عليه ! أعف عنه !

فنهض الأمير من مكانه ، وأخذ المرأة بذراعها ، وهمس في أذنها :

— إنك تحبينه كثيراً . . . تحبينه إلى حدّ ما كنت أتصوّره

وأنخيله يازوفكا . . . انهضى . . . انهضى وخفي من روعك !

نهضت المرأة وجعلت تحديق البصر في الحاكم الغريب ، وقد هالها
مجرّد التفكير في أن حبيبها سيطرح في سجن القلعة ، في سبلبرج ،
ذلك القبر الذي يدخل إليه المعتقلون ولكنهم لا يخرجون منه أبداً !

وقال الأمير النموى :

— إن الشاعر زاتك عدو خطر . وطالما حذرته من الاسترسال

في غوايته والامعان في ضلاله . لكنه لم يصغ إلى ولم يرعو ، فلا سبيل
معه إلى الرحمة والشفقة ! أعلم ياسيدتي أنك خليلته ، وأنتك تحبينه .

وكل ما أستطيع صنعه ، هو أن أسمح لك برؤيته للمرّة الأخيرة ، قبل
إرساله تحت الحفظ إلى قلعة سبلبرج ، مقرّه إلى الأبد !

وأمر الحاكم بادخال الشاعر فجئ به ، وكان زافع الرأس ، شامخ
الأنف ، برّاق العينين ، موثق اليدين . . .

وخيل إلى زوفكا ، الحبيبة الحزينة ، أن نظرها لم يقع قبل ذلك

اليوم على رجل أجمل من هذا !

ودار بين العدوين ، الأمير والشاعر ، الحديث الآتي :

- هل أنت واضع النشيد الذي يردده التشك ، في هذه المقاطعة
النسوية ، ويتغنون به في كل مكان ؟
- نعم . أنا واضع النشيد الذي يردده التشك في وطنهم
المستعبد ، ويتغنون به في ربوعهم الخضراء ، وجبالهم الشاخنة !
- وإلى من أردت أن تسمى ، في نشيدك هذا ؟
- إلى النساء ، وإليك يا فردريك ، يامثل الطغاة ومندوب السفاحين !
- أتعترف بذنبك ؟
- أعترف بما صنعت . ولك أن تسمى ذنباً جهاد فرد في سبيل
حرية وطنه واستقلاله !
- إنك لوقع !
- الوقح من يعتدى على حقوق الغير !
- سأخفض رأسك وكبرياءك !
- أما رأسي فيمكنك أن تخفضه أمام سيف الجلاد . وأما
كبريائي فلن تستطيع قوة في العالم أن تخفضها !
- لقد أردت أن تجعل الأمير فردريك سخرية بين أبناء
جلدتك . والأمير فردريك بدوره سيجعلك يازاتك سخرية بين
الناس أجمعين . وسوف نرى ونضحك كثيراً !
- وأشار الأمير إلى اثنين من رجاله ، فبقدا ، وأمسك كل منهما
بذراع الشاعر ، وساقاه أمامهما إلى حجرة مجاورة .

وأرادت زوفكا أن تلحق بحبيبها ، فحال الجنود بينها وبين رغبتها .
فوقفت في مكانها ، مصغية ، مرتجفة ، شاحبة !
ساد في المكان سكون كسكون القبور ، ثم سمع صرير مزعج ،
ووصلت إلى أذن المرأة ، من خلال الجدران ، تهديدات وزفرات ، وخيل
إليها أنها أمام قبر يتصاعد منه أنين عميق . . .
ومرّت الدقائق كأنها أجيال !

وفتح الباب من جديد ، ودفع الجنود إلى داخل القاعة شخصاً
ممزق الثياب ، ملطخاً بالدم ، مجدوع الأنف ، مقطوع الأذن !
ورفعت زوفكا يديها إلى وجهها ، كيلا يقع نظرها على ذلك المشهد
الهائل ، وصاحت صيحة عالية ، وارتفعت في آن واحد ، في جوّ ذلك
المكان ، قهقهة الأمير وحاشيته !

زاتك ، الشاعر الجميل ، أصبح الآن خرقة آدمية بالية ، تسيل منها
الدماء ، وتشمئز من النظر إليها العيون !
وقال الأمير :

— سيهزأ منك الناس كما أردت أن يهزءوا مني !

ثم التفت إلى المرأة وصاح :

— هذا هو حبيبك أيتها الحسناء . ! . انظري إليه ، وليتبعه حبك

إلى حيث يذهب !

وشعرت زوفكا بعواطف متباينة متضاربة تتلاطم في صدرها :

أُتلقى بنفسها بين ذراعي حبيبها المهشم الممزق ؟ أم تشيح عنه بوجهها ؟
وبينما المرأة تتخبط في حيرتها ، ارتفع من جديد صوت الأمير
فردريك صائحاً :

— والآن . . . احمّلوا هذا المهرج البشع إلى سجون سبلبرج !
فردت عليه صيحة مفاجئة ، صيحة لا تنطلق إلا من حنجرة الحيوان
المفترس ، الذي يحيط به الصيادون من كل جانب ، صيحة هائلة مخيفة !
أرسل ذاتك المسكين تلك الصيحة ، وأراد أن يقترب من حبيبته
وخليلته . . .

لكنها أعرضت عنه ، ورفعت عينيها إلى الأمير الجميل ، الممتلئ
صحة وعافية ، الجالس على مقعده الوثير ، وارتسمت على ثغرها ابتسامة
حلوة ، ابتسامة الرضى والارتياح !



ثمانية أيام مرّت على الشاعر ذاتك في سجنه المظلم ، في تلك البئر
المحفورة في الصخر ، التي يلقي فيها الأسرى المساكين ، ولا يرون النور
إلا من كوة صغيرة في سقف البئر العميقة .

ثمانية أيام مضت عليه ، وهو لا يفكر في آلامه وما قاساه من عذاب ،
أكثر مما يفكر في تلك المرأة الخائنة ، التي لم تنتظر خروجه ، بل ألقت
بنفسها بين أحضان عدوّه ، وصفعته تلك الصفعة المؤلمة ، أمام ذلك الجمع
من القوّاد والجنود ؟

وكان الشاعر يردد قول القائلين : ان المرأة لا يؤمن شرّها !
وسمع فجأة حركة في سقف البئر !
رفع نظره ، فأخذت عيناه نوراً ضئيلاً من خلال الثقب الصغير .
وارتفع غطاء البئر ، فعمّ النور ذلك المكان الذي لم تر أرضه النور
منذ سنوات .

وظهر رجل ، وظهرت بجانبه امرأة . وتكلم الرجل ، وتكلمت المرأة ،
فعرف زاتك صوته وصوتها !
الأمير الغريب والحبيبة الخائنة !
كانت تقول له :

— انظر يا معبودي العزيز . انظر إلى عدوك في قبره . لقد قضيت
عليه وأنا أحبك من أجل هذا . يا معبودي العزيز !
هذا الصوت صوتها ! يا للمخلوقة القذرة ! إنها تعانق الأمير ! لقد
جاءت تهزأ بالسجين المعبذب المسكين ! جاءت تعطيه برهاناً جديداً ،
حسيّاً ، ملموساً ، على خيانتها وفسقها !
لم يتمالك الشاعر نفسه ، فصاح من أعماق قبره :

— عليك اللعنة يا ابنة حواء . ! . عليك ألف لعنة أيتها الفاجرة !
عليك لعنة الله ولعنة الوطن معاً . ! .
ولاكن .. ماذا حدث ؟

صرخة مرتفعة . . . استغاثة خوف ويأس . . . شيء يهوى من
أعلى البئر إلى أسفله . . . جسم يسقط بجانب السجين الهائج !
وصوت زوفكا يصيح :

— آه .!. زاتك ، حبيبي زاتك ! مارأيك في هذا .؟. أما أحسنت
في انتقامي لك ؟ خذه .!. خذه .!. الطاغية بين يديك الآن .!.
ألقيت به في البئر ، فاحمد أنفاسه إذا كان لا يزال على قيد الحياة !
اقتله .!. انتقم لنفسك كما انتقم لك من عدوك !
نظر زاتك إلى الجسم الملقى بجانبه ، فاذا به أمام الأمير فردريك ،
الحاكم النموسى الغليظ الكبد ، الذى عذبه ، وسجنه ، وأغرق وطنه
في بحر من الدماء !

فاقترب السجين من الطاغية ، وجثا على ركبتيه ، وقال بهدوء :
— انظر . . . انظر يا فردريك ماذا صنعت بي ! لكنك الآن في
قبضتي ، وسأنتقم منك لنفسى ولجميع الضحايا الذين سفكت دماءهم
الذكية . . . سأقتلك . . . ستموت خنقاً بيدي !
وقالت زوفكا :

— أسرع . . . أسرع قبل أن يصل أحد إلى هنا .!.
فقبض زاتك بيديه على عنق عدوه الأمير النموسى السفاح ،
وهم بخنقه .

لكن الأمير رفع رأسه قليلا ، وتهد ، وقال بصوت خافت

ضعيف :

— أتألم . . . أتألم . . . ماء . . . أريد جرعة ماء . . ! .

وردّت زوفكا بالحاح :

— أسرع . . أسرع . . أسمع أصواتا تقترب . . أسرع في القضاء

عليه قبل أن يدركنا الحرس !

وردّد الأمير بصوته الخافت ، الضعيف :

— جرعة ماء . . . جرعة ماء . . . أتألم . . ! .

وشعر زاتك ، الشاعر المهشم المعذب ، بأن قواه تخونه ، وبأن يديه

لن تستطيعا خنق عدوّ ضعيف أعزل يتألم !

فنهض على قدميه ، وذهب إلى ركن من أركان البئر ، كان يضع

فيه إبريق الماء ، وأسرع إلى جلاده النمسوى ، وجثا ثانية على ركبتيه ،

وأخذ رأس الأمير فردريك بيسراه ، وصبّ له الماء في فمه بينماه !

هكذا مافله الشاعر زاتك ، ابن بوهيميا المستعبدة بالأمس ، الحرّة

اليوم ، بالخاكم النمسوى فردريك دى هاسبورج !

وهكذا انتقمت خليّة الشاعر لحبيبها من الأمير الأجنبي الطامع

فيها !

وهذا ما يقصه عليك الرواة في تشكوسلوفاكيا ، إذا ما طلبت إليهم
 أن يحدثوك عن شاعرهم الوطني القومي ، زاتك النبيل الأبى ، الذى
 صفح عن رجل أراد قتله ، وأتخذ حياة جلاده !



ابنة الحداد

أقام اللورد هاملتون ، سفير بريطانيا العظمى في نابولي ، حفلة استقبال باهرة ، إكراماً لقائد الأسطول الأميرال نلسون ، الذي نزل ضيفاً على السفارة الانجليزية ، في طريقه إلى لندن ، بعد أن طارد السفن الحربية الفرنسية في البحر الأبيض ، وشرّد بعضها وأغرق البعض الآخر . غصت قاعات السفارة بمئات المدعوين من رجال السياسة والجيش والعلم ، وبدأت « اللادي هاملتون » زوجة السفير ، في أبهى حلة من الجمال والتأنق . وما وقع عليها نظر القائد البحري الكبير ، ولمست يدها يديها ، حتى أخذ بسحر عينيها ، وشعر بأن سهاماً حادة تنطلق من بين تلك الأجفان ، وتخترق صدره ، وتنفذ إلى قلبه ، وإن ذلك القلب الذي لم يعرف الخوف ، ولم يخفق للحب ، قد أصبح منذ تلك اللحظة لزوجة السير جون هاملتون الفاتنة عبداً أسيراً .

هام نلسون بحب « اللادى هاملتون » هياماً جنونياً . وأوشك في كثير من الأحيان أن ينسى واجبه من أجلها . ومرّت الشهور والأعوام ، وهو يذهب لقضاء مهمة ، أو لإحراز فوز جديد يضيفه إلى انتصاراته السابقة ، ثم يعود إلى المرأة التي ملكت قياده وتسلطت على فؤاده ، فيقضى بين ذراعيها ساعات ، كان ذلك الجندى العظيم يعتبرها ألدّ ساعات حياته وأحلاها .

وعلم الزوج بالعلاقة الأثيمة التي تربط زوجته الجميلة بذلك القائد الشاب ، الذى يفوقه قوّة ونشاطاً وشهرة وجمالاً . لكنه لم يتعرض للعشيقين ، ولم يؤنب زوجته على سلوكها المعيب وخيانتها الفاضحة ، بل لزم الصمت ورضى بالأمر الواقع ، فدوّن التاريخ في صفحاته ذلك الحادث الغريب العجيب : زوجة رجل تعيش مع عشيقها في منزل زوجها ، وبمعرفة ورضاه !



مرّت سنوات على ذلك اليوم الذى عرف فيه نلسون عشيقته الحسناء ، ولم يحدث في خلال تلك السنوات ما يعكر صفو هئائهما وسعادتهما . فان القائد كان مخلصاً في حبه ، وكانت اللادى مخلصه في حبه ، وكان زوجها مخلصاً في بقاءه على الحياد !

وفي ليلة من ليالى الشتاء ، اختلى نلسون بمجيبته في حجرتها ، وبعد أن ارتشف الاثنان كأس الغرام مترعة ، وسكرا بنشوتها ، قال

الأميرال ، وهو يداعب شعر اللادى ، وقد استرسلت غداثره على
كتفها العارى :



اللادى هاملتون

— لى رجاء أريد أن أفضى به إليك أيتها الحبيبة العزيزة . فهل
تعديني بأنك ستطلعيني من جهتك على الحقيقة كلها ؟
فأجابت المرأة ، وقد طوّقت عنق الرجل بذراعيها :
— وهل فى استطاعتى أن أرفض لك طلباً أيها الحبيب العزيز ؟
فطبع نلسون على ثغر اللادى قبلة حارة وقال :
— لقد أوغلت الألسنة فى التحدث عنك ، وإذاعة الأخبار
المتناقضة المتبانية عن ماضى حياتك ، فهل لك أن تطلعيني على تلك

الحياة وأطوارها ؟ وتخبريني بما تخللها من حوادث أيا كانت ؟ إنني
أتركك من وقت إلى آخر للذهاب بعيداً على ظهر سفينتي الحربية ،
دون أن أعلم إذا كنت سأعود إليك أم لا ، وإذا كان يجب عليّ أن
أقول لك « إلى اللقاء » أم « الوداع ! » فأريد يا حبيبتي أن أُلِمَّ بأسرار
حياتك جميعها ، وأن لا يفوتني شيء من ماضيك . فهل لك أن تطلعيني
على ما أرغب في الاطلاع عليه ؟



فقصت اللادى هاملتون قصتها على الأميرال نلسون . قالت :
« كان أبى حدّاداً في قرية صـغيرة بانجلترا . وقد مات تاركاً أمي
في حالة من الفقر تدعو إلى اليأس . لكنها كانت شجاعة قوية البنية ،
فجعلت تشغل وتبحث لي أيضاً عن عمل أعمله من جهتي ، لكي
تتمكن من القيام بنفقات معيشتنا ، فدخلت في خدمة أسرة انجليزية
نبيلة ، ثم انتقلت إلى غيرها فغيرها فغيرها ، وذقت في كل منها ما لا بدّ
أن تذوقه فتاة خادمة ، أفرغت فيها الطبيعة محاسن كثيرة . فقد حام
حول فتیان تلك الأسر الشريفة كما يحوم الذباب حول الحلوى ،
وشعرت بأن شرفي وعفافي في خطر عظيم .

« أفضيت إلى أمي بمخاوفي . فوافقته على وجوب الانتقال من
الأقاليم إلى العاصمة ، حيث يتسع ميدان الرزق ، وتتعدّد أبوابه ،
فسافرنا إلى لندن .

« كنا نظن أننا نتقى شرّاً ، فوقعنا في أسوأ منه !

« أدخلتني والدتي في خدمة رجل من الموسيقيين ، ثم في خدمة آخر يشتغل بتموين السفن ، ففي خدمة طبيب لم يلبث أن طردني من بيته ، لأنه فاجأني مرة أمام المرأة ، أعجب بنفسى ، وأتهادى أمام صورتى ، وقد ارتدبت ثياب زوجته ، وحليت عنقى وصدرى وذراعى بجواهرها !

« ومنذ ذلك الوقت ، بدأت أشعر بميل غريب إلى التأنق والتبرج ، واستولت على فكرة لازمتنى سنوات عديدة ، وهى أن أستخدم جمالى للحصول على الثروة والخروج من الفاقة التى كنت أعانيها .

« وبعد خروجى من منزل ذلك الطبيب بأسابيع ، خدمت في منزل ضابط من ضباط البحرية ، ثم انتقلت إلى عيادة طبيب آخر يدعى « جراهام » من أولئك الذين يءالجون المرضى بالتنويم ، ومخاطبة الأرواح ، وكتابة الطلاس ، وهناك ، فى تلك العيادة المظلمة ، كنت أقوم بما يطالب منى الطبيب القيام به ، فأنام عند ما يأمرنى بالنوم ، وأصحو عند ما يريد ذلك ، فداعت شهرتى فى المدينة ، وأصبح اسم « ايمّا » على جميع الألسنة .

« وعرفنى فى تلك العيادة كثيرون من الأشراف والنبلاء والعظماء ، وأحاطونى بأنواع التكريم والاغراء والاغواء . هذا يعرض علىّ مالا ، وذلك يعرض علىّ جاهاً ، وذاك يعرض علىّ اسماً مشهوراً ، فعمرت

قدمای للمرّة الأولى ، وزلت بی الخطی . فجئحت عن السبیل السوی ،
ووقعت فی الهوّة التي كان لا بدّ لی من الوقوع فیها . وأنا وحيدة فی
ذلك الوسط الموبوء ، لا مرشد لی ولا معین ولا نصیر !



اللا دی هاملتون

« أحبّنی رجل من الأشراف يدعی « لورد جریفیل » ولعلک
تعرفه ، فخرجت من خدمة الطیب جراهام ، وأقمت مدة من الزمن
فی قصر اللورد ، وأصبحت خلیتته ، وبقيت علی تلك الحالة أكثر
من سنة .

« لكن اللورد كان یطمع فی التمتع بمحاسنی ولا یحبّنی . وعند
ما أشبع حواسه من جمالی ، ألقانی بین یدى صدیقه الرسام « رومنیه »
الذی صنع لك رسماً بديعاً منذ سنوات !

« اتخذني الرسام رومنيه نموذجاً ومثالا ، وبلغ إعجابه بي مبلغاً عظيماً ، وما لبث هو أيضاً أن كاشفني بغرامه كالآخرين . لكنني أعرضت عنه ، وأوشكت أن أترك العمل عنده ، لولم يقسم لي أنه لن يعود إلى مكاشفتي بعواطفه ، ولن يحدثني عن شيء لا علاقة له بالرسم والرسوم . » وأقام رومنيه ذات يوم معرضاً جمع فيه أبداع ما صنعه في حياته الفنية من صور زيتية ، ورسوم خالدة ، فتوافد عظماء البلاد على ذلك المعرض ، وكنت أستقبل الزائرين وأرحب بهم ، فعرفني السير جون هاملتون . . . ولا أظنني في حاجة إلى أن أقول لك من هو السير هاملتون ! فانا نخونه الآن ، نخونه منذ سنوات وهو عالم بالخيانة راض بها ساكت عنها !

« كان هاملتون في ذلك الوقت حديث العهد في سفارة إنجلترا بنابولي ، فدعاني إلى زيارته فيها ، مع والدتي ، وسافرنا إليها بعد رحيله عن إنجلترا بعشرة أيام .

« وهناك ، أقمت في دار السفارة معززة مكرّمة ، وكان السير العاشق يضع تحت قدمي ثروته وسلطته ونفوذه واسمه ومنصبه ، فأحيا الحفلات وأقام الولائم ، وتمكنت بواسطته من الوصول إلى الملكة ماري كارولين ، ملكة نابولي ، فلقيت حظوة لديها ، وأصبحت صديقة لها ، ومامضت شهور معدودة على إقامتي في نابولي ، حتى أحرزت شهرة واسعة ، أثارت صدى حسد الكثيرات من نساء الأشراف والسفراء .

« وعرفت شاعر ألمانيا « غوث » العظيم ، الذى أفاخر بأنه كان من المعجبين بى ، وقد كتب عنى قطعة خالدة سوف تتناقلها الأحقاب جيلا بعد جيل !

« لكن إقامتى فى دار السفارة الانجليزية كانت موضوع قيل وقال ، لأن الناس كانوا ينظرون إلىّ نظرهم إلى خلية السفير التى لا تربطها به رابطة شرعية قانونية ، فأدرك هاملتون ، وأدركت معه أن بقاء الحالة على ما كانت عليه ، فيه خطر على سمعة السفير ومنصبه ، فعزمنا على أن نعقد زواجنا ، وأفضى السير هاملتون إلى الملكة مارى كارولين وإلى أهله وذويه برغبته تلك .

« وكان ما كان من صراخ وهياج واعتراض واحتجاج ، وحاول الجميع أن يمنعوا ذلك الزواج ، وانطلقت الألسنة تعدد مساوىء حياتى وتكشف عن ماضى ، وترمى السير هاملتون بالجنون والخروج على تقاليد الأشراف .

« لكنه لم يأبه لأقاويل الناس ، ولم يحسب لأحد حساباً ، بل ظلّ متمسكا برغبته ، وفى اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٧٩١ عقد زواجنا فى لندن ، وأصبحت « ايمما » ابنة الحداد الوضيعة الحاملة ، سفيرة بريطانيا العظمى فى مملكة نابولى !

« ومنذ ذلك الوقت ، تغيرت الأحوال بتغير الظروف ، وشعرت بأن مركزى الاجتماعى يجب أن يظلّ مصاناً من العبث ، وصرت لزوجى

مطبعة مخلصه ، ولبلادي خادمة أمينة . وإذا كنت قد أتيت في حياتي
أعمالا ياباها الشرف وتمجها الأنظمة القائمة ، فاني قد أعقيتها بأعمال أخرى
يجب أن تحسب لي ، وأن يذكرها المؤرخون ، عند ما يعدون مناقب
الأفراد الذين خدموا وطنهم ووضعوا في سبيله نفوذهم . وإذا كانت
انجلترا قد استطاعت أن تبرز في ميدان السياسة ، في نابولي وغيرها
من الأقطار المرتبطة بها ، انتصارات تتبعها انتصارات ، فأنما الفضل في
ذلك عائد إلى الأشخاص الذين كانوا يمثلونها ، ويعملون لحسابها ، وأنا
منهم ! وهذا الجبال الفتان ، الذي أسرق قلوب الرجال في انجلترا ونابولي
وغیرها ، هذا الجبال الفتان ، الذي أصبح الآن ملكا للأميرال نلسون
العظيم ، قد خدم الوطن الذي انتمى إليه ، بقدر ما خدمه نبوغ السياسيين
وإقدام القواد !

« وقد عرفتكم على أثر زواجي أيها الحبيب ! فوهبتك قلبي ، ووهبتك
جسمي ، ووهبتك حياتي . وإذا كنت الآن أعلل النفس بأمنية ما ،
فأنما أعللها ببقائك حيا تخلص لي الحب ، وتخلص لوطنك الخدمة !
» لقد حدث مراراً عن جادة الصواب ، وانغمست في الملهيات ،
وأطلقت لشهواتي العنان ، وصنعت ما تصنعه النساء المتهتكات . لكنني
عدلت بعد ذلك عن سيرتي الأولى ، فأنا جديرة بحبك واحترامك !



الأميرال نلسون

« هذه قصتي ، أفضيت بها إليك كاملة غير ناقصة ، دون أن أخفي
عنك شيئاً من خباياها ، أو أكتُم عنك سرّاً من أسرارها ! »

*
* *

ظلت اللادي هاملتون عشيقته لذلك القائد العظيم إلى أن مات
زوجها في سنة ١٨٠٠ ، فرزقت من « هوراس » نلسون بطفلة أطلقت
عليها اسم « هوراسيا » وفي سنة ١٨٠٥ قتل الأميرال في واقعة
« الطرف الأغبر » الشهيرة ، فقدت « إيما هاملتون » بموته كل
أمل وكل عزاء . . .

وهجرت لندن إلى قرية صغيرة في الأقاليم ، وكانت قد أضاعت
ثروتها ، فتبعتها الدائنون ، وضيقوا عايتها الخناق ، وجعلوا حياتها أشبه
بالجحيم . . .

لم تنطق صبراً على الذل والفقر بعد العز والغنى ، فماتت معدمة
لا تملك من حطام الدنيا شيئاً ، وراحت ضحية المرايين الذين جرّدوها من
كل شيء ، عند ما أصبحت وحيدة مهيضة الجناح ، بعد أن كانوا
يتمرغون على قدميها ، وهي عزيزة الجانب واسعة الجاه !

ودفنت ، بناء على رغبتها ، بين زوجها اللورد وعشيقتها الأميرال .
أما ابنتها هوراسيا ، فقد عذبت شقيقات نلسون بتربيتها وتعليمها .
وعند ما بلغت سن الزواج ، اقترنت بأحد نبلاء الانجليز ، الذي نسي
أو تناسى أن الزوجة التي وقع عليها اختياره هي ثمرة غرام فاسد !





شهيد الوفاء

دافع الفرنسيون عن القرية دفاع الأبطال الأجداد ، وسقطوا جميعهم في ساحة القتال صرعى أو جرحى ، واستولى الألمان على ما تبقى من منازل القرية وأسواقها ، وقد دمرتها المدافع وأكلتها النيران . وكان بين الجرحى شاب في الثانية والثلاثين من عمره ، أصيب برصاصة في فخذه الأيمن ، فسقط في ساحة الكنيسة ، حيث أغشى عليه . ولما أفاق من غشوته ، وجد نفسه في أحد المستشفيات ، وراء صفوف المقاتلين ، وبجانبه راهبة تواسيه ، وطبيب يضمد جراحه . نظر إليهما الشاب نظرة ملؤها الشكر والعرفان بالجميل ، وحاول أن يتحرك ، لكن ألمه كان شديداً فأرسل أنه عميقة ، واستلقى من جديد على فراشه .

اقتربت منه الراهبة وقالت بصوت حنون :

— أتتألم كثيراً يا بنى ؟

فرفع الشاب الجريح بصره وأجاب بصوت ضعيف :

— كثيراً يا أختى ! .. كثيراً ... كنت أؤثر الموت فى ساحة

القتال على البقاء حياً ... هكذا ... جريحاً ... دامى الجسد
والنفس ...

فقاطعت الراهبة الممرضة :

— لا تيأس يا ولدى ! فسوف تشفى من جرحك هذا ، وتعود إلى

القتال إذا شئت .

— إذا شئت ؟ .. هذا ما أرغب فيه ... فقد حرمت من لذة

الانتقام لصدىقى ... ولم أبرّ بالعهد الذى قطعته على نفسى ...

— وأىّ عهد قطعت على نفسك ؟

— أن أنفذ وصية الضابط « دومارسىه »

— من مدينة مرسيليا ؟

— أجل أتعرفينه ؟

— أعرفه جيداً ... فقد أصيب بجرح ممسك ثلاثة أشهر ...

وساعدنى الحظ فكنت الممرضة التى اعتنت به ، وانتشلتني من

مخالب الموت !! — ٥١

— لقد أنقذ والده والدي ، وتبناه ورباه في منزله . . . لكن هذه
القصة لا تهملك . . .

— بل تهمني . . . قصتها على . . .
فسكت الشاب واغرورت عيناه بالدموع . . . ثم قال :
— اصغى إلى يا أختي . . . وإذا ما قضيت نحبي في هذا المستشفى ،
ولم أعد إلى مرسليليا حيث تنتظر زوجة دومارسيه رفيق حياتها ووالد
بنيتها . . . فرجائي الوحيد إليك أن تحملي إليها خبر موته . . .
وموتى . . .

— تكلم يا بني .
— اعلمى أو لا أننى لست من أبناء هذه البلاد . . .
— كيف ذلك ؟ ..
— أنا مصرى الأصل ، فرنسى المولد والتربية . . . كان جدى
من المماليك الذين استعان بهم القائد بونايرت فى حروبه وفتوحاته ،
وكان يدعى « أحمد الفارسى » . . . جاء مع بونايرت إلى هذه الديار ،
عند ما عاد إليها ذلك الفاتح العظيم ، وظل فى خدمته منذ ذلك الوقت
إلى أن وافاه الأجل . . .
— وأبوك ؟ ..

— ترك جدى ولداً وحيداً يدعى مصطفى ، فأخذ الضابط جول

دومارسيه إلى بيته ، حيث عاش اليتيم مع أبناء الضابط الفرنسي ، كأنه واحد منهم .

- وجول دومارسيه . . .
- هو والد الضابط « إدرين دومارسيه » صديق هذا . . .
- وهل اعتنق أبوك الدين المسيحي ؟
- كلا . . . بل ظلّ يدين بالإسلام وقد تزوج بابنة عمّ منقذه
- جول دومارسيه . . . ورزق منها ولداً واحداً . . .
- هو أنت ؟
- هو أنا . . . أجل . . .
- وهل مات والدك ؟
- منذ عشرين سنة ، وكنت حينذاك في الخامسة من العمر .
- ومنذ ذلك الوقت ؟
- منذ ذلك الوقت ، عشت مع إدرين دومارسيه وإخوته . . .
- ثمّ انتقلت معه إلى منزله عند ما اتخذ له زوجة ورزق أبناء . . . وكانوا يعدونني واحداً منهم . . .
- ألم تتزوج ؟
- كلا . . . وكنت عازماً على البقاء أعزب طول حياتي . . .
- وبعد ؟
- هبت العاصفة الهوجاء ، وأطلقت الحرب من عقولها ،

واكتسح الجنود الألمانيون هذه البلاد من شمالها إلى قاعها ،
وانتشروا في المدن والقرى ، يطلقون أيديهم في السلب والنهب والقتل !

— ما أفضع الحروب وأهوالها !

— أجل . . . الحرب فظيعة والقائمون بها مجرمون سفاكون !

— وما حملك على الاشتراك فيها ، وأنت غريب عن هذه الديار ؟

— لست غريباً بالمعنى الصحيح . . . فإنّ الدم الذي يجري في

عروقي مزيج من الدم الفرنسي والمصري . . .

— وهل تطوّعت من تلقاء نفسك ، أم دفعك الضابط دومارسيه

إلى ارتداء هذا الثوب العسكري ؟

— تطوّعت من تلقاء نفسي . . . فقد دعى صديقي الضابط إلى

الصفوف ، وطلبت إليه أن يدعني أصحبه وأقاتل معه جنباً إلى

جنب . . .

— وهل خضت غمار معارك كثيرة ؟

— شاهدت أربعين معركة واشتركت فيها جميعها .

— ولم تصب بأذى ؟

— كلا . . . لكن دومارسيه قتل منذ شهرين في موقعة دامية ،

في مقاطعة شمبانيا . . .

— وكنت بجانبه ؟

— كنت بجانبه . . . وقد سقط بين ذراعي مضرجاً بدمه . . .

فالتفت إلى وقال « يوسف . . . إليك وصيتي الأخيرة . . . انتقم
لى . . . حياتي تساوى حياة عشرين من الأعداء . . . فعندنى أنك
ستقتل منهم عشرين رجلاً . . . فتوفى بذلك دينك لى . . . »

— وهل وعده بذلك ؟

— وعده وأدمت وعدى بالقسم !

— وهل قمت بالوعد ؟

— قتلت ثمانية ضباط من الألمانين . . . وأصبت بعد ذلك
بهذا الجرح الخطر . . . الذى سوف يقضى على . . . فيحول موتى
دون تنفيذ وصية الميت إلى النهاية . . . وهذا ما يؤلمنى أكثر من هذا
الجرح الدامى !



قال الجندى هذا وأغمى عليه من جديد ولم يفق بعد ذلك . . .
ومات « يوسف » فى ذلك المستشفى ، حزينا ، يائسا ، لأن القدر
القاسى لم يساعده على القيام بعهده ، والانتقام لصديقه .

حصده ملاك الموت قبل الأوان . . .
بكت الراهبة الممرضة حزنا عليه ، وعزمت على تنفيذ وصيته
الأخيرة ، فحملت إلى أسرة دوما رسيه خبر الوفاة . . .
فبكت الزوجة زوجها ، والأبناء أباهم . . .

وأكبروا جميعهم عمل الشاب المسكين ، الذي قذف بنفسه إلى
الحرب ، وقابل الموت بثغر باسم ، وشجاعة عظيمة ، اعترافاً منه بفضل
صديقه الكبير عليه ، وتنفيذاً لما أوصاه به الميت قبل استشهاده .
وبكت الزوجة والأبناء ذلك الأخ المخلص ، يوسف الفارسي ،
ابن مصطفى الفارسي ، وحفيد المملوك أحمد الفارسي المصري ، الذي
قضى تحت سماء فرنسا ، في سبيل الواجب وشهيد الوفاء .



عبد السميع المغربي

في اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٨٤٨ ، وصل الأمير
عبد القادر بن محي الدين الجزائري إلى مدينة أمبواز الفرنسية ، ومعه
نساؤه وأبنائه وبعض الأخصاء من أنصاره ومريديه ، وأقام مع تلك
الحاشية الكبيرة في القصر الفخم الذي أعدته له الحكومة الفرنسية .
كان ذلك البطل العظيم والقائد المغوار قد حارب الفرنسيين ،
ونازعهم أرض آبائه وأجداده ، وحاول أن يرد جيوشهم الجرارة عن
وطنه الجزائر ، فابتسم له الحظ حيناً ، وعبس في وجهه أحياناً ، وانهى
الأمر بأن دارت الدائرة عليه ، واستولى الفرنسيون على تلك البلاد
العربية من ساحلها إلى أقصى صحاريها ، وفي مساء اليوم الثامن والعشرين
من شهر أغسطس سنة ١٨٤٧ ، سلم عبد القادر بن محي الدين سيفه
وجواده لقائد الفرنسيين ، الذي قطع على نفسه عهداً باسم حكومة

بلاده ، بأن يفتح الطريق حراً أمام البطل الجزائري ، ويدعه يسافر إلى البلاد التي يختارها من الأقطار الشرقية .

لكن حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية لم تقم بالعهد الذي قطعه القائد للأمير ، فأرسل عبد القادر أسيراً إلى فرنسا ، وظلّ في قصر أمبواز من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٢ ، وهي السنة التي غادر فيها المدينة الفرنسية ، وسافر إلى الشرق ، وأقام في دمشق بقية حياته الحافلة بعظم الأعمال .

وكان بين الذين وافوا عبد القادر بن محي الدين إلى منفاه في أمبواز رجل من أتباعه وجنوده يدعى عبد السميع المغربي ، أبي إلا أن يشاطر أميره الضراء بعد أن شاطره السراء ، وأن يخلص له الخدمة إلى النهاية ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، كما أخلصها له في مضمار الجهاد ، وميدان القتال .

وكان الأمير يحبّ ذلك الجندي الخالص والخدام الأمين ، ويحفظ له الجليل على صنعه ، ولا ينسى له التضحية التي قام بها بهجره وطنه وأهله وخلانه ، للحاق به إلى ديار النفي والعزلة ، ومما قاله له مرة عبد السميع المغربي : « إنني يا مولاي قد شطرت قلبي إلى شطرين ، شطر وهبته لله عزّ وجلّ ، وشطّر وهبته لك ما دمت حياً ! . . »

لكن المغربي لم يشـهر ذات يوم إلا وقد حلّ في قلبه المشطور إلى شطرين شـخص لم يكن بالانتظار ، ولم يحسب له الرجل من قبل

حساباً ، فاضطره ذلك إلى إعادة التقسيم وإلى تجزئة قلبه بالرغم منه إلى ثلاثة أجزاء . . .

ذلك الشخص ، بل ذلك الملك ، جاءه في صورة فتاة جميلة فاتنة ، تدعى « أليس فونتان » عرفها الفارس الجزائري ، وهي تتردد على القصر ، فأحبها وأحبته ، وكشفها بغرامه ، فكانت عند حسن ظنه بها ، وبادلتها بمثل غرامه ، وتعاهد الاثنان على الزواج ، ورضيت الفتاة بأن تقيم في القصر أسيرة مع حبیبها ، إلى أن يفرج عنه ويطلق سراحه ، فتذهب معه إلى حيث يريد ، وتتبعه إلى حيث يشاء .

أفضت الفتاة إلى أهلها برغبتها وعزمها ، فثار نائهم ، وقامت قيامتهم ، وحرّموا عليها منذ ذلك اليوم الخروج من البيت وحدها ، والذهاب إلى القصر الذي يقيم فيه الجزائريون وبينهم حبیبها عبد السميع ، وأقسموا أنهم سيعتقمون منها ومن الجزائري إذا غافلتهم وخالفت إرادتهم ، قائلين لها إنهم يؤثرون رؤيتها جثة هامدة بين أيديهم على رؤيتها زوجة لذلك الغريب ، الذي لا يمت إليهم بنسب ، والذي ينتمى إلى أمة غير أمّتهم ، ويدين بدين غير دينهم .

ومرّت الأيام والأسابيع ، والفتاة العاشقة سجنينة في بيتها ، والشاب العاشق سجين في قصره ، لا يستطيع أحدهما الخروج من سجنه والاتصال بمن يحب .

وكان عبد السميع المغربي يجهل ما حلّ بحبيبتة ، ولا يعلم السبب

الذي من أجله انقطعت الفتاة فجأة عن الجيء إلى القصر كما دتها ،
فاضطربت أفكاره وقلق باله ، وجعل يضرب أخماساً بأسداس ،
واتهى به التفكير إلى الاعتقاد بأن « أليس فونتان » قد ضحكت منه
وهزأت به ، وأنها أرادت أن تلعب بعواطفه وتلهو بشعوره ، فثلث
أمامه تلك المهرلة الغرامية ، وكانت في تمثيلها ماهرة بارعة !

فأراد أن يتحقق من الأمر ، وجعل يسأل فتيات المدينة المترددات
على القصر ، ويستفسر عن حبيبته ، فقليل له إن « أليس » لا تغادر
بيت أبيها إلا نادراً وبصحبة واحد من أخواتها ، وإنها تبدو دائماً
عابسة كئيبة حزينة . . .

تضاعف اضطراب الشاب حينذاك وازداد قلقه ، وخشى أن يكون
في الأمر سرّاً ، وأن تكون الفتاة قد أصيبت بمكروه أو حلت بها
مصيبة ، وأصبحت حياة المسكين منذ تلك الساعة سلسلة عذاب وآلام
نفسية مبرحة .

وكان في سجنه مبيض الجناح ، لا يستطيع شيئاً ولا يملك وسيلة تقرب
بينه وبين الفتاة ، وتمكنه من استجلاء الحقيقة ومعرفة الواقع .
فزاده الشك المأ على ألم وعذاباً على عذاب . . .

*
* *

نهض سكان القصر في صبيحة اليوم الخامس من شهر نوفمبر سنة
١٨٥١ على أصوات استغاثة آتية من الحداثق الواسعة ، فهرعوا إلى

مقرّ تلك الأصوات ، وإذا بهم أمام فتاة في ثياب النوم ، تزحف على الأرض زحفاً ، بجانب السور الشرقي ، والدم يسيل من صدرها وجنبها ، ناركاً وراءها آثاره الحمراء . . .

حملوها مسرعين إلى داخل القصر ، وأسعفوها بالعلاج ، وضمّدوا جراحها ، وهي تردد بلا انقطاع اسم « عبد السميع ! »

فنادوا الرجل من حجرته ، وهم لا يدركون لهذا الحادث معنى ، وأقبل عبد السميع على الفتاة فعرفها ، وضمها إلى صدره ، وجعل يغدق عليها من الكلمات الحلوة العذبة ، ما أعاد إلى نفسها الطمأنينة وإلى ثغرها الابتسام ، وأثار في نفوس الجزائريين الذين رأوا ذلك المشهد ، الشكوك والريب . . .

أدرك عبد السميع أنه قد تهادى أمامهم في إظهار عواطفه ، وذهب على مرأى منهم إلى أبعد مما تبيحه له اللياقة ويجيزه له الأدب ، فوضع رأس الفتاة على وسادة ، ونهض من مكانه ، وخاطب رفاقه في الأسر قائلاً :

— لهذه الفتاة قصة يجب أن تطلعوا عليها ، وبين جنبتيها سرّ رهيب ينبغي أن تقضى به إليكم أنفسها .. ولكن ، لن يكون ذلك إلا في حضرة سيدنا وأميرنا عبد القادر بن محيي الدين ، فدعوني أستأذن منه للمثول بين يديه مع هذه الفرنسية الحسنة . . .



الأمير عبد القادر الجزائري

قصت « اليس فونتان » على الأمير عبد القادر وحبيبه قصتها ،
 بصوت متهدج خافت ، وعلى أوجها أمارات التعب والعناء ، ثم سكنت
 لحظة واستطردت قائلة :
 — أردت اليوم أيها الأمير أن أهرب من منزل والدي وألحق
 بالرجل الذي أحبته في هذا القصر ، فخرجت من البيت خلصة ،

وانطلقت أعدو في الطريق مسرعة إلى هنا . لكن أخى الأكبر شعر
 بفرارى ، وانطلق من جهته في أثرى فأدركنى أمام الباب الحديدى ،
 وأمسك نى ، وأراد أن يرغنى على العودة معه إلى البيت فرفضت ،
 وهددنى فلم أخف ولم أخضع ، فما كان منه حينذاك إلا أن استلَّ
 خنجره وأغمده فى صدرى ثم فى جنبى ، فسقطت على الأرض ، وفرَّ
 الأخ المجرم الأثيم ، وقد ظننى ميتة . . . فناديت . . . واستغثت . . . ولجى
 رجالك ندائى وأغاثنى . . .

هذا ما قالته الفتاة « اليس فونتان » لعبد القادر الجزائرى ومن كان
 يحيط به من الأسرى الجزائريين فى ردهة الاستقبال فى قصر امبواز .
 ومال رأسها فجأة على كتفها . . .

وسقطت على الأرض لاجراك فيها ، وقد استنفد ذلك الجهود العظيم
 قواها ، ففاضت روحها شاكية إلى الخالق ظلم لانسان لأخيه !



طلب عبد القادر الجزائرى من السلطة المختصة فى المدينة أن يسمح
 له بدفن جثة الفتاة الفرنسية فى مقابر المسلمين بجوار القصر ، فسمح له
 بذلك ، ووقدت الفتاة العاشقة هناك ، فى ظل الأشجار الباسقة
 والغصون الوارفة .

وفى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٢ ، عند ما أمر
 عبد القادر رجاله بشدّ الرجال لمغادرة امبواز ، بعد أن أخلت الحكومة

الفرنسية سبيلهم ، وأعادت إليهم حرّيتهم ، امتثل الجميع للأمر ماعدا
أسير واحد أبى أن يتمتع بتلك الحرية المحبوبة المنشودة .

ذلك الأسير هو عبد السميع المغربي ، البطل العاشق ، الذى وجد
منتحراً فى حجرته ، وبجانبه ورقة صغيرة كتب عليها هذه الكلمات :
« ادفنوني قبل رحيلكم فى الضريح الذى يضمّ رفات اليس فونتان .
فقد أبت الأقدار أن أتخذها خلية فى الحياة ، فدعوني أتزوجها فى
الممات ! »

والزائر الذى يمرّ اليوم بمدينة امبواز ، ويطوف فى أنحائها ، ويصل
إلى مقابر المسلمين فيها ، يرى بين الأضرحة الكثيرة المبعثرة هنا
وهناك ، قبراً صغيراً ، عليه حجر أسمر اللون ، يعلوه شاهد من المرمر ،
هو قبر العاشقين اللذين لم ينعموا بالوصال : أليس فونتان الفرنسية ،
وعبد السميع المغربي الجزائرى !



البطل الجبان

عثر أحد مؤرخي المكسيك على تفاصيل هذا الحادث فدوّنوها في كتاب وضعه عن تلك البلاد ، قال :
اشتعلت نيران الحرب الأهلية في المكسيك ، ونشب القتال بين جنود الحكومة وبين الثوّار .

فدارت الدائرة على حزب الإصلاح وأخذت الثورة ، وولّجأت الحكومة إلى الإرهاب ، للقضاء على من بقى من الزعماء المهيّجين ، ولدرء كل خطر مقبل .

علمت والدّة « جوان دا كوستا » أن ولدها الأصغر « مانويل » وقع أسيراً في أيدي الجنود ، وأنهم سيعدمونه رمياً بالرصاص في اليوم التالى عند شروق الشمس ، فجلست في مقعدها حزينة كئيبة ، وظلت غارقة في

بحار الأحلام ، تذرف الدموع السخينة مدة ساعة كاملة .
 منذ ثلاث سنوات مات ولدها الأكبر « جوان » موت الأبطال ،
 بعد أن خدم المبادئ الدستورية بنزاهة وإخلاص وإقدام .
 كان جوان مثال الشجاعة والبسالة . لكن الأقدار خانته فقبض
 عليه ورمى بالرصاص ، فخرّ صريعاً في سبيل المصلحة العامة ، ولفافة
 التبغ بين شفتيه ، ضاحكاً ، هازئاً بخصومه ، مبتسماً أمام الموت .
 وقد انتقم لنفسه ، وتمكن من قتل أربعة جنود قبل أن يقبض عليه .
 ذهبت أمه إلى ساحة الإعدام بصحبة بعض الأصدقاء ، وشاهدت
 موت ولدها البطل ، وظلت صورته مرسومة على صفحة قلبها ، فكانت
 تستمدّ العزاء من ذكرى حبیبها .
 رأتها هادئاً ، جميلاً ، واقفاً ، موثق اليدين واللفافة بين شفتيه ،
 أمام الجدار الأبيض . . .

اقترب منه الكاهن فحدثه بسكينته وهدوء ، وطلب منه الغفران عن
 سيئاته . ثمّ بحث عن أمه بين الحاضرين ، وحدّق فيها النظر حتى الثانية
 التي أرغم فيها على تحويل عينيه عن أمه ، والنظر إلى فوهات البنادق
 المصوّبة إليه . . .

دخن لفافته حتى النهاية ، ثمّ ألقاها من فمه ، والتفت إلى الذين كانوا
 حوله وقال :

— إن من يموت منا يذهب ضحية الجور وشهيد الواجب ! إنى أموت

فى سبيل المبدأ . وكل قطرة من دماننا ليست إلا زهرة ورد يزىن بها
علم الحرية الخافق ! ستتلقون بنادقكم فى سبيل الحرية لا عليها .
فشكراً لكم !

أطلقت البنادق ، فظلّ جوان واقفاً حيناً ، ثم سقط على الأرض
رويداً رويداً .

هكذا مات الابن الأكبر ، تاركاً أثراً خالداً فى النفوس ، وذكري
محيدة بين أبناء عشيرته .

ولما علمت الأم المسكينة أن ابنها الأصغر مانويل سيعدم أيضاً رميةً
بالرصاصة كما أعدم أخوه جوان استولى عليها الدهول . . .

لأنها تحب مانويل . . . لكنها كانت تحب جوان أكثر منه . .
ذلك لأن مانويل ليس شجاعاً كأخيه . بل هو جبان ، جبان جداً .
ولم يشف من جبنه رغم الدروس الوطنية التى كان يلقيها عليه أخوه
وأبناء قومه .

تطوع مانويل فى جيش الثورة ، لا حباً فى الإصلاح ، ولا انتصاراً
لمبدأ شريف ، ولا عن شجاعة وإقدام ، بل عن خوف ووجل .

خاف أن يقول عنه الآخرون إنه جبان أو خائن فتطوَّع مثلهم !
كانت ثياب الجندى تشغل منكبيه ، وكان دوى البارود يبعث
الرعب إلى نفسه ، وصليل السيوف يسبب له دواراً ، وكان عند ما يطلق
بنذيقته يغمض عينيه ويرتجف !

لكنه كان طلق اللسان حلو الحديث ، فكان يؤثر على رفاقه بكلامه
وينحدهم بلهجته ، فينظرون إليه كما ينظرون إلى بطل هام ، وشجاع
مقدام .

قبضوا عليه وحكموا عليه بالاعدام !
لم يفعلوا ذلك لأنه مانويل فقط ، ولأنه ثائر في وجه الحكومة مع
من ثار عليها ، بل لأنه أيضاً شقيق جوان ، الذي كان المتربعون في
دست الأحكام يخشون ذكره ، ويتعقبون آثار أهله وخلانه للايقاع
بهم جميعاً .

كان الجنود ينظرون إلى أسرة داكوستا كأنها وكر زناير ، وبما
أن أحد الزناير لدع الحكومة مرة واحدة ، فيجب إذن إبادة الأسرة
بكاملها وهدم الوكر وحرقه !

عقد مجلس حربي لمحاكمة مانويل ، فقصد الشاب إلى رئيس
المجلس ، وألقى بنفسه على قدميه ، وبكى بكاء مرّاً ، وطلب العفو متعهداً
بخیانة مبادئه والانضمام إلى صفوف الحكومة ومناهضة الثورة !
أجل ، هذا ما فعله الشاب الجبان : رضى أن يخون إخوانه ويقاثلهم
ويتجسس عليهم .

ليكن القضاة لم يرقوا لحاله وظنوا أنه يفعل ذلك غشاً وخداعاً .
أمكن أن يكون أحد أفراد أسرة داكوستا خائناً جباناً إلى هذا

الحد؟ أليس مانويل شقيق جوان وابن فرديناندو؟ لابد من إعدامه
في الحال والتخلص منه !

وبعد المداولة قال رئيس المجلس :

— أوكد لكم أنه سيكون ثابت الجنان رابط الجأش كأخيه ،
عند ما يصدر عليه حكمنا بالإعدام .

جرت المحاكمة وصدر الحكم :

« الإعدام رمياً بالرصاص »

أمر غريب . . . غريب جداً . . .

أظهر مانويل شجاعة نادرة عند ما تلى عليه الحكم . . . لكنها
شجاعة مصطنعة . . . شجاعة مصدرها الذهول والانحطاط في القوى
العقلية .

فكر الشاب في الموت ، فاستولى عليه نوع من الخبل .

ثم عاد إليه رشده شيئاً فشيئاً ، فأخذ يبكي ويلطم وينوح .
رآه السجان على هذه الحال ، فظن أن الباعث على ذلك إنما هو
الغيظ لا الجبن .

بكي مانويل وانتحب ، ثم خارت قواه فاستسلم إلى اليأس والقنوط .
حينئذ جاءت أمه لمقابلته .

رفض الحارس في بادئ الأمر السماح لها بالدخول لكنها وضعت
في يده قطعة من النقود ففتح لها باب السجن .

جلست الأم بجانب ولدها ، وأخذت يديه بيديها ، فألقى مانويل رأسه على صدرها وبكى .

لكنها ابتسمت وقالت بصوت هادئ :

— مانويل . كل شيء سائر على مايرام . قابلت الضابط منذ حين .

فرفع الشاب رأسه ونظر إلى أمه وفي عينيه بارقة أمل :

— العفو ؟

خرجت هذه الكلمة من أعماق صدره ، فحدقت أمه النظر فيه ، وأدركت أنه خائف يرتجف ، فعضت على شفتيها حتى آدمتهما :

— خائف . . . هو . . . رحمة الله عليك يا جوان !

شعرت بأنها تكره هذا الابن الجبان ، وانها لا تحب إلا ذلك البطل الشجاع الذى قضى شهيد واجبه .

سكت الاثنان . ثم قالت الأم :

— أؤكد لى الضابط أنه يعفو عنك إذا رضيت أن تخدم الحكومة وتتحون مبادئك الأولى .

بدا على وجه مانويل سرور عظيم ففهمت الأم أنها أدركت الحقيقة .

— نعم يا أماه . . . عرضت عليه ذلك أنا أيضاً . . . لكنه

لم يصدقنى .

— أخطأت يا بنى . . . لقد تمّ الاتفاق بينى وبين الضابط على

أن تطلق حريتك وتدخل فى خدمة الحكومة . لكنه يطلب منا أن

تبقى الامر مكتوماً إلى حين ، لأنه لو افترض السر لساءت العاقبة .

— نعم .

— سيجرى كل شيء كالعتاد . . . وتقف أمام الجنود في ساحة الإعدام . . . لكن البنادق ستحتمى باروداً فقط . . . وعند ما يطلق الجنود بنادقهم ، تسقط على الأرض كأنك أصبت بالرصاص ، وصعقت صعقاً . . . ثم يحملونك إلى المنزل لتدفن . . . فيرسل التابوت فارغاً وتبقى أنت في البيت . . .

ثم ابتسمت وقبلته وتابعت حديثها قائلة :

— فتصبح حراً طليقاً وتدخل بعد ذلك في خدمة الحكومة إلى مدة وجيزة لتعود إلى صفوف الثائرين في أول فرصة .

— طبعاً يا أماء . هذا ما كنت أفكر فيه . لكن ما الفائدة من التظاهر باعدامى ؟ يصعب على أن أقف أمام الجنود وأن تطلق البنادق في وجهى ، حتى ولو كانت خالية من الرصاص القاتل !
فانتفضت الأم وقالت :

— يصعب عليك ؟ أجبان أنت إلى هذا الحد ؟ ألا تقوى على الوقوف أمام الجنود والنظر إلى فوهات البنادق الفارغة ؟ أنا لا أطلب منك أن تكون بطلاً كأخيك . . . لا أرغب إليك إلا في الحياة يا بنى . . . في الحرية تستردّها . . . يمكنك أن تهزأ بالجنود ، وأن

تقهقه عند ما تطلق عليك البنادق ... الفارغة .. أفاهم أنت ؟
الفارغة ...

وهنا خانها الجلاء ، فتساقطت الدموع من عينيها ، وطوقت عنق
ولدها بذراعها .

لم يدرك مانويل معنى هذا الانقلاب .

— لا تخشى شيئاً يا أمه ... سأكون شجاعاً .

فقبلته مرة أخرى ... وابتسمت ... وانصرفت ...

*
* *

ترك موت مانويل داكوسستا في نفوس أبناء بلاده أثراً عميقاً ،
وذكروهم بموت جوان البطل الأ كبر والشهيد المجيد .

وقف مانويل كما وقف جوان أمام الجدار الأبيض ولقافة التبغ بين
شفتيه .

وبحث مانويل كما بحث جوان عن أمه بين الجمع المحتشد ، وابتسم
لها ابتسامة ملؤها الشجاعة والحب .

رآه الضابط على هذه الحال فهمس في أذن سامعيه :

— أما قلت لكم إنه سيكون شجاعاً كأخيه ، وأن كل ما أظهره

من الجبن والخبل ليس إلا لعبة لعبها علينا لينجوا بنفسه ؟

ألقي مانويل لفافته كما ألقاها جوان ، والتفت إلى الجنود وصاح بهم :

— أطلقوا النار !

وقيقه طويلًا . . .

فأطلقت البنادق ، وكاد الرصاص يقطع جسمه إلى شطرين .
سقط مانويل على الأرض جثة هامدة .

فتقدم منه الجنود وحملوه ووضعوه في التابوت المعد للمعدومين .
وافلت نظر الجميع ما طبع على وجهه من دلائل الدهشة والاستغراب
والذهول !

كان وجهه مخيفًا . . . لأنه لم يكن ينتظر الموت !
كذبت عليه أمه ليكون شجاعاً ، وليظهر أمام الجنود ما أظهره أخوه
من ثبات الجأش .

هذه كانت تعزية الأم الوحيدة : مات ولدها موت الأبطال ،
ولو بالرغم منه !

ولن يذكر أبناء المكسيك بعد اليوم اسم جوان داكوستا إلامقرونًا
باسم أخيه مانويل .

وستظل الأم المسكينة « أم البطلين » . . .





السلطانة صافناز

دخلت « والدة السلطان » على ابنها « عبد العزيز » الجالس على عرش آل عثمان ، فأسرع إليها ، وتناول يدها باحترام وإجلال ، وقادها إلى مقعد وثير ، فأجلسها عليه وقال :

— رجوتك بالحجىء إلى يا والدتى العزيزة لكى افضى إليك برغبة اريد تحقيقها بواسطتك .

فوضعت الأمّ قبلة على جبين ولدها وقالت :

— إنك سلطان البرين ، والسيد المطلق التصرف يا بنى . فأية امنية تلك التى تحتاج إلى مساعدة امك لتحقيقها ؟

— نعم . اعلم ان فى استطاعتى الحصول على ما أريد دون ان يعترضنى احد . لكننى اخضع للتقاليد . وإليك الآن ما ارغب .
— تكلم يا بنى .

— في العام الماضي ، أرسل إلى محمود بن عياد باشا التونسي
ثلاث نساء من جواريه نلن حظوة عظيمة في عيني ، وأردت أن يعاملن
في القصر معاملة خاصة ، فأمرت بوضعهن في حمايتك ، وطلبت إليك
أخذهن تحت رعايتك .

— نعم . والجواري الثلاث — يلدر وناجية وصافناز — يقمن
منذ ذلك الوقت معي ، ويتناولن طعامهن على مائدتي .
— أماء ، أرغب في اتخاذ إحداهن زوجة لي .
— ومن هي السعيدة الحظ التي وقع عليها اختيارك ؟
— صافناز . إنها أبرع الثلاث جمالا وافتكهن خطأ . خاطبها
وأطلعها على رغبتى هذه .

— سيكون لك ماتريد يا بني .

*
*

أسرعت الأم إلى الجارية ، وقصت عليها ما حدث بينها وبين
السلطان عبد العزيز ، وهنأتها على تلك الخطوة الخاصة ، وذلك العطف
السامى ، ظناً منها أن الفتاة سترقص طربا ، وتقابل الخبر بفرح وحبور .
لكن « صافناز » ألقت بنفسها على قدمي والدة السلطان ،
وأجهشت بالبكاء ، وجعلت تندب سوء طالعها !

— لم أعرف والدى يا مولاتى ، لأن النحاسين اختطفوني طفلة من
البلدة التى ولدت فيها ، بل إننى لا أعلم إذا كنت تركية ، أم شركسية ،

أم عربية . وفي هذه السنة التي قضيتها في كنفك ، في هذا القصر ،
ألفيت فيك حنانا أنساني ما عانيت في حياتي من مذلة وبؤس وشقاء .
نعم إن عطف مولاي وولي نعمتي ، ووقوع نظره عليّ ، واختياري
دون نساء الحرم زوجة له ، كل ذلك يقع في نفسي وقعاً شديداً ، ويؤثر
فيّ تأثيراً عميقاً . لكنني لا أريد يا مولاتي . كلا ، لا أريد أن أصير
سلطانة . بل أؤثر البقاء وضيفة خاملة !

عشاً حاولت « والدة السلطان » أن تقنع الفتاة بالعدول عن عزمها .
فاضطرت في النهاية إلى مجاراتها في رغبتها ، وإيقاظها مما كانت تعتقده
مصيبة كبيرة وبلاء عظيماً .

فقال للفتاة :

— لا بد أن يكون في صدرك سرّ دفين تضمينه بين الضلوع
يا ابنتي . فهل لك أن تطلعي عليّ ، وأن تكشفيني بحقيقة أمرك ؟
إنني امرأة مثلك . امرأة ذاق في صباها ما تذوقينه الآن من مرارة
وحسرة . فقد جئ بي إلى هذا القصر بالرغم مني . لكنني خضعت
لأحكام القدر ، وأذعنت لما كتب لي في صفحات الغيب . فنسيت
الماضي ، ورضيت بالحاضر ، وانتظرت صابرة ما يحنيني به المستقبل .
تكلمي يا ابنتي وقولي لي : أي سرّ ذلك الذي يملك على الرفض ؟
فتنهدت صافناز ، وأجابت :

— لا تسأليني . . . بل سأل الأمير عبد الحميد !



السلطان عبد الحميد في قصر يلدز

فانتفضت « والدة السلطان » وقالت :

— آه ! لقد فهمت الآن !

كان الأمير عبد الحميد شاباً جميلاً ، يطوف أرجاء القصر ، ويقضى ليلاليه في الحدايق الغناء ، لا تقلق باله شؤون السلطنة ، ولا تعكر صفو راحته متاعب العرش .

كان في الثلاثين من عمره ، عند ما وقع نظره للمرة الأولى على الجارية صافناز . فعلق بها قلبه ، وعلق به قلبها . وتوثقت بين الاثنين عرى

حبّ شديد خالص ، وجعل كلّ منهما يبنى النفس بزواج قريب يحمل معه السعادة والهناء .

لكن صافناز كانت من نساء السلطان وجواريه ، وليس لعبد الحميد أن يتطلع إلى حرم عمه ، ويتخطى حدوداً لا تسمح له التقاليد بتخطيها . وعند ما جاءت والدته السلطان ، سائلة مستفهمة ، أفضى إليها بسرّه ، وأطلعها على ما يكنه قلبه من حبّ وهيام لتلك الجارية الحسنة ، وما يعلقه من أمل على تحقيق أمنيته باتخاذ صافناز زوجة له .

أدركت أمّ السلطان أنها أمام عاطفة قوية متبادلة بين العاشقين . وحملها حنوّها على الميل إلى مساعدة عبد الحميد دون ابنها . فقالت له : — إن عمك يا بنيّ جالس على العرش ، وهو صاحب سلطة واقتدار ، له ما يريد ويملك ما يشاء . فأنعم بالآ . سأسعى إلى التأثير عليه ، فأجعله يعدل عن رغبته ، وتبقي صافناز حرة طليقة ، فتتخذها أنت زوجة لك .

— سأحفظ لك ما حييت هذا الجميل . لقد أحببت صافناز حباً عظيماً ، تضمحل أمامه كلّ عاطفة ، ولو قدر لي أن أفقد أمل الزواج بها ، وأصدم في هذا الحب العميق ، لقضيت حياتي شقيّاً تعساً حزيناً . بل لقطعت جبل هذه الحياة التي لن تطيب لي بدون صافناز الجميلة . فوعده خيراً ، وقطعت على نفسها عهداً بأن تحقق ذلك الحلم وتعتد ذلك الزواج .



صدق السلطان عبد العزيز ما قصته عليه أمه من أمر صافناز الجارية ، واعتقد أن الفتاة مريضة ، وأن الأطباء أشاروا عليها بالراحة التامة ، والابتعاد عن الاستئانة ، والالتجاء إلى المناطق الجبلية طلباً للسكون والشفاء .

وذهبت الأم إلى أبعد من ذلك ، وجعلت ابنها السلطان يعتقد أيضاً أن الزواج يقضى على حياة صافناز ، وأن دخول رجل عليها سوف يكون بمثابة دخولها القبر !

لم يخطر ببال عبد العزيز أن « والدة السلطان » تخدعه ، فعدل عن عزمه ، ورضى باتخاذ يلدز زوجة له ، بدلا من أختها صافناز . وهكذا كان . . .

وبعد أيام ، جاءت والدة السلطان إلى عبد العزيز ، وهي مكفهرة الوجه مقطبة الجبين ، وقالت :

— إنني أحمل إليك اليوم يا بنيّ خبراً ليس فيه ما يسر ويفرح .
لقد ماتت صافناز ، ودفنت في حديقة المنزل الذي كانت تسكنه ، في جبال الأناضول !



أما الحقيقة فكانت غير ما ذكرت والدة السلطان . وفي الوقت الذي كان عبد العزيز يعتقد فيه أن الجارية أصبحت في عداد الأموات ،

كانت صافناز تذوق بين ذراعي حبيبها عبد الحميد لذة الحب ،
ونشوة الغرام !

مهدت المرأة للعاشقين سبيل الوصال ، وصارت تنظر بعين العطف
والرعاية إلى ذلك الحب المترعرع ، فأحاطته بسياج من الكتمان ، وظل
أمر الحبيبين مجهولا من الجميع ، دون أن يعلم أحد في الاستانة كلها أن
الجارية « الميتة » لاتزال على قيد الحياة ، وأنها أصبحت زوجة للأمير
عبد الحميد !

أربع سنوات قضاهما الزوجان في أحضان السعادة والهناء . فرزقا
ثلاثة أبناء هم ثمرة الحب الأول ، وسيظل عبد الحميد إلى آخر أيامه
يذكر بالحسرة والحنان تلك الساعات الحلوة اللذيذة التي مرت على شبابه
مرور الطيف !



. . . ١٨٧٦

رحل السلطان عبد العزيز إلى جوار ربه ، وجلس على العرش ابن
أخيه مراد ، شقيق عبد الحميد الأكبر ، باسم مراد الخامس .
ومنذ ذلك الوقت ، جعل الأمير العاشق يتطلع إلى أريكة الملك ،
ويوجه كل عنايته إلى تسنم ذلك العرش ، الذي لا يليق به رجل ضعيف
الارادة خائر النفس كالسلطان مراد .

وفي ثلاثة شهور ، أثبت عبد الحميد أنه جدير بالملك ، وأن إقناذ السلطنة من الخطر الداهم الذي يكتنفها لن يتم إلا على يده ، فاكسب رجال البلاط وأقطاب البلاد ، وفي شهر أغسطس ١٨٧٦ ، كان الأمير عبد الحميد جالساً على العرش ، ونودي به سلطاناً باسم عبد الحميد الثاني .



السلطان عبد الحميد الثاني

وبدلت الأقدار أحوالاً بأحوال وأشخاصاً بأشخاص !
تقلد عبد الحميد « سيف عثمان » في حفلة رائعة ، أقيمت في جامع أيوب بالاستانة ، في السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٦ .
ومنذ ذلك اليوم ، عادت صافناز الميثة إلى الحياة جهاراً ، وحملت

لقب « سلطنة » عملاً بالقوانين واتباعاً للتقاليد .

وبدلت الأقدار أيضاً قلوباً بقلوب وشعوراً بشعور !

كان عبد الحميد « الأمير » يحب زوجته ويخلص لها في حبه .
لكن عبد الحميد « السلطان » لم يكن ليجد من وقته متسعاً ، بين
المكائد والدسائس ومتاعب الملك ، للالتفات إلى تلك المرأة التي أفرغ
فيها عواطف شبابه !

ثم إن نيران الحروب والثورات ، وقد اندلعت ألسنتها في أطراف
السلطنة ، كانت تسترعى أنظار الرجل وتتطلب اهتمامه ، فأخذت في
صدره من جراء ذلك نيران الحب وسعير الغرام .

وظل عبد الحميد الثاني يحيط بحبيته الأولى — السلطنة صافناز —
بالعطف والعناية . لكنه كان يفعل ذلك مدفوعاً بعاطفة الاحترام
لزوجته ، لا بعامل الحب والهيام . . .

كان في الرابعة والثلاثين من عمره عندما قبض بيده على صولجان
الملك . ومنذ ذلك الوقت ، عزم عبد الحميد على خنق مايتلاطم في
صدره من شعور ، ويهيج فيه من عواطف : أراد أن يكون سلطاناً قبل
كل شيء . والاحتفاظ بالسلطنة يقضى عليه بأن يطرح جانباً كل
عاطفة من شأنها أن تنسيه واجبه نحو العرش !

والحب عاطفة من هذا النوع !

لقد بلغ غرامه بصافناز مبلغاً عظيماً ، وهام بها هياماً أققده الصواب

أحيانا ، وظلّ لها مخلصاً وفياً في السنوات الأربع التي قضاها معها ،
وبعيداً عن أعين الناس ونواظر الرقباء .

لكن غرامه بالعرش ، وهيامه بالسلطنة ، قضيا على تلك الحياة
الهنئية ، وبددا ذلك الحلم الجميل ، وصار الواجب يحتم على عبد الحميد
أن يكون سلطاناً قبل أن يكون رجلاً . . .

دخلت عليه صافناز ذات يوم في خلوته ، وانطرحت على قدميه ،
وجعلت تذكره بذلك الغرام الذي كان الشابان يستمدان منه الحياة .
قالت له :

— أنسيت يا عبد الحميد أنني رفضت طلب عمك ، وآثرت الزواج
بك على الزواج به ؟ لقد فعلت ذلك لأنني كنت أحبك ، ولأن الحب
في نظري يفوق الملك بهجة وبهاء . ! .

فأخذ السلطان رأس الحبيبة بين يديه ، وضمه إلى صدره ، وقال
بصوت متهدج :

— أعلم ذلك يا حبيبتي . وكنت أنظر إلى الحب نظرك إليه . لكن
الأقدار شاءت أن أنهج في حياتي منهجاً آخر . لقد أحبتك . ولا أزال
أحبك . . وسوف تظلين في هذا القصر وبين نسائه المختارة المدلة ،
ولكن واجبا أسمى من واجب الحب يدعوني إليه . بالأمس كنت
لك وحدك . أما اليوم فأنني للعرش أولاً ولك ثانياً . لو استسلمت بعد
الآن للحب استسلمي له من قبل ، لفقدت العرش وأضعت السلطنة .

ولن يقال إن عبد الحميد فقد عرشه وأضاع سلطنته من أجل النساء .
سأعطيك من وقتي مايتيسر . أما المال فلك منه ما تريدن . وقصور
الاستانة أمامك ، أنت فيها جميعها الأمرة الناهية !

فرفعت السلطنة صافناز رأسها ، ونظرت إلى الحبيب بعينين
ترقرقت فيهما الدموع ، وقالت :

— إن قصور الاستانة جميعها ، وخزائن أموال السلطنة جميعها ،
لا تساوى في نظر المرأة المتعطشة إلى الحب ساعة واحدة تقضيها مع
الرجل الذى تحب ! وداعاً يا عبد الحميد ! لقد دفنت صافناز حية في
عهد عبد العزيز ، وستدفن أيضاً حية في عهدك !



طلبت السلطنة من زوجها أن يمن عليها بالطلاق كما من عليها من
قبل بالزواج . فأجابها إلى طلبها ، وأهداها قصرًا على شاطئ البحر
الأسود ، حيث أقامت مدة من الزمن مع رجل آخر ، اتخذته زوجًا
لها ، اعتقاداً منها أن هذا الزواج الثانى سينسبها الزواج الأول .

لكن القدر ظلّ عابساً فى وجهها ، فأدركت أن السعادة قد ولت
مع الحب ، وأن الهناء لن يعود إليها . . .
وأمعن ذلك القدر القاسى فى تعذيبها . فمات زوجها الثانى ، والتهمت
النيران قصرها !

بلغ عبد الحميد الخبر ، وكان فى ذلك الوقت فى أوج مجده ، فأرسل

يعرض على المرأة التي أحبها أن ترجع إلى القصر ، وتقيم بين نساء الحرم
معرّزة مكرّمة .

لكنها رفضت ...

فأنعم عليها بقصر آخر في « جامليجة » وأمر لها بخمسين ذهباً
مرتباً شهرياً .

وهناك ، في عزلة ووحدة ، قضت السلطانة صافناز بقية حياتها ،
تستمدّ القوّة من ذكريات الماضي ، وتنظر تارة قاقّة ، وتارة مذعورة ،
إلى الغيوم المتلبدة في فضاء السياسة ، والأمواج المتلاطمة حول العرش ،
وتسمع من بعيد هزيم الرياح الهوجاء ، المنذرة بعظائم الأمور ! . .
لكن الموت وافاها في ذلك القصر الذي استحال لها قبراً ، قبل أن
تشاهد هبوب العاصفة ، وزعزعة العرش ، وسقوط الرجل الذي أحبته ،
وموته في قصر منعزل ، سجيناً مثلها !



ياورالباشا

جلست الفتاة ليلي في ظلّ الشجرة الباسقة الوارفة ، وأخذت رأسها
بين يديها ، وانهمرت الدموع من عينيها متدفقة كالسيل ، وقد
اكتنفت أغصان الصفصافة الحزينة الباكية ، تلك العذراء الحزينة
الباكية !

كيف لا تحزن ليلي ، وكيف لا تبكي ، وقد عزم أهلها على زجها في
هوة التعاسة والشقاء ، وأرغموها على الاقتران برجل تمقته وتشمئز من
مجرّد النظر إليه ؟

ذلك الرجل هو إسماعيل بك ، الضابط في الجيش . . .
كان في أيام الحرب السود ياوراً للطاغية أنور باشا ، وكان معروفاً
بشراسته وخلقه الوحش ، لا تُلذّ له الحياة إلا إذا تكدست حواليه الجثث
أشلاء ، وانبعثت منها رائحة العفونة والدماء !

كان الرجل سفاكاً أثمياً ، لا يمر أسبوع واحد دون أن يجنح فيه
إلى جريمة يرتكبها أو سفالة يقتربها ، لكن يد العدالة كانت أقصر من
أن تصل إليه ، لأن حماية سيده كانت درعاً متيناً ترد عنه الأذى ،
وترساً منيعاً يدفع عنه عقاب القضاء .

أما هي ، فحسنة فاتنة ، ذات جبين وضوء ووجه وضاح ، تلمع فيه :
عيون عن السحر المبين تبين لها عند تحريك الجفون سكون
إذا أبصرت قلباً خلياً من الهوى تقول له كن عاشقاً فيكون !
ووالدها فلاح مزارع في قرية « تشيان » من أعمال الأناضول ، يدعى
أحمد كاهيا .

أحبت وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، فتى بهى الطلعة ، قوى
العضلات ، دمث الأخلاق ، وتعاهدت معه على الزواج .
لكن أباهما حال دون رغبتها ، وألقى بها بين ذراعى ذلك الياور
الغنى ، إسماعيل بك ، طمعاً في الجاه والمال .
واحتمل الوحش فريسته ورحل إلى بعيد !



لم تطق ليلى البقاء مع ذلك الرجل .
وهل يقوى الحمل الوديع على معاشرة الذئب الدموى ؟
كانت حياتهما الزوجية سلسلة فواجع !



أنور باشا

زوج ينهال على زوجته سباً وضرباً . وزوجة مسكينة مهيضة الجناح ،
تتحمل الآلام والبلايا بصبر وجلد ، منتظرة من ربها الفرج ، ومن
العناية الالهية إنقاذها من ذلك الجحيم !
كانت تجلس في حجرتها المظلمة ، حيث حبسها زوجها الغيور ،
هناك ، على ضفاف البوسفور ، وتنظر من خلال زجاج النافذة إلى
الزوارق تمخر عباب المياه الزرقاء ، إلى الأفق البعيد ، إلى الشمس
المتلألئة ، فتبكي حظها العاثر ، وتفكر في قريتها الصغيرة ، في أهلها

وأترابها وخلانها ، في الحبيب الذي وقفت له قلبها ، ولسان حالها يردد
قول القائل :

يا غادى البرق جد بالحى منزلة جدنا عليها دماء من مآقينا
شطت بنا الدار فالذكري تؤرقنا ولا مع البرق وهنّا بات يشجينا
كم ذا نؤمل بالبشرى وتخلّفنا ونسأل الطيف إسعاداً فيشقينّا

✱
✱ ✱

لكلّ ضعيف في هذا العالم نصير ، ولكلّ قلب خافق قلب خافق
يحنّ إليه حنين الأنامل إلى أضلع الأعواد .

كانت تقيم في منزل مجاور لمنزل الياور اسماعيل بك ، امرأة عجوز
أخنى عليها الدهر ، وعضها الشقاء بأنيابه ، فرقت لحال جارتها الشابة
المعدّبة ، ومهدت لها سبيل الهرب ، ففرّت ليلي تحت ستار الظلام ،
وابتعدت عن مسكن الزوج القاسى .

عادت إلى قريتها حيث حاول أبوها إرجاعها إلى زوجها . لكن
أفراد العائلة أوقفوه عند حدّه ، وأرغموه على الاحتفاظ بابنته العسة .

فبقيت ليلي في القرية ، تساعد أهلها في الحقول ، وقد عاد إليها
الأمل في أيام مقبلة أسعد من الأيام المدبرة .

ولكن الزوج كان بالمرصاد .

أثار هرب فريسته غضبه وشراسته ، وسوّلت له نفسه الأمانة

بالسوء أن ينزل بها وبذويها انتقاماً رهيباً ، كان يظنه عقاباً عادلاً .
كان ذلك في غرة سنة ١٩٢٧ .

إن الانقلاب العظيم الذى أحدثه مصطفى كمال باشا فى تركيا قد
بدل حالاً بحال ، وأخلاقاً بأخلاق .

لكنه لم يؤثر فى نفس الياور اسماعيل بك ، الذى ظلّ يعتقد أنه
فوق كلّ عدالة وقضاء — بل إنه القابض على كلّ عدالة وقضاء !
لم يلجأ إلى المحاكم ولا إلى الشرع طالباً إنصافه ، وإعادة زوجته إليه ،
بل عمد إلى الأساليب التى ألفها ، والتى طالما ضجّ منها الناس فى عهد
مضى وانقضى !



غادر إسماعيل الاستانة ذات يوم ، وسافر إلى قرية تشيان ، حيث
نزل فى ضيافة رجل من أصدقائه ، وبات يرقب الفرصة السانحة للأقدام
على الفعلة الشنعاء التى رسم خطتها وعول على تنفيذها .
خرج يوماً إلى الحقل مترصداً ، وقد اعتقل بندقيته الحربية ذات
الطلقات العشر ، فرأى أحمد كاهيا وأفراد عائلته ذاهبين إلى عملهم
اليومى ، وقد اصطحبوا ليلى كهادتهم منذ عودتها إلى القرية .
عرفهم إسماعيل واحداً واحداً .

هو ذا أحمد كاهيا ، الوالد الشيخ ، ووراءه ليلى ، الزوجة الهاربة ،
تتأبط ذراع أخيها شوكت ، خفيضة أخت ليلى ، ففاطمة زوجة شوكت ...



أنور باشا في ثوبه العسكري

وصلوا إلى حقلهم ، وتفرقوا ، وباشروا عملهم .
فأنساب اسماعيل أنسياب الأفعى إلى الشيخ أحمد ، ولما صار على
بعد عشر خطوات منه ، وثب مسدداً فوهة بندقيته إلى صدر حيه ،
وصاح في وجهه :

— إننى ألقى عليك سؤالاً واحداً ، وأطلب الردّ عليه في الحال ،
أتعيد إلى ابنتك أم لا ؟

فاتنفض الشيخ ثم تمالك نفسه ونظر إلى الفوهة القاتلة باحتقار وقال :
— لا . لن أفعل . إننى ...

ولكنه لم يتمّ كلامه . . .

أطلق اسماعيل من بندقيته رصاصة اخترقت صدر المسكين ،
فخرّ صريعاً .

وسمع الباقون دوى الرصاص فأسرعوا مهرولين إلى كبيرهم .
لكن رصاص اسماعيل حصدهم كالسنابل ، الواحد بعد الآخر ،
فسقطت ليلي تتخبط بدمها وتبعثها حفيظة . . .
ووقفت فاطمة في وجه ذلك الوحش ، وتوسلت إليه باكية :

— اقتلني واعف عن زوجي !

لكن اسماعيل كان أشدّ حقداً على شوكت منه على سواء ، فأطلق
عليه وعلى زوجته ما تبقى في بندقيته من رصاص حطم رأس فاطمة ،
ومزّق صدر شوكت !

ووقف بعد ذلك ينظر إلى الجثث المبعثرة ، وارتسمت على شفثيه
الغليظتين ابتسامة رديئة !

ثم ألقى البندقية من يده ، واقترب ببطء من جثة زوجته ، ونظر
إلى الثقب الذي أحدثته الرصاصة في صدغها ، وإلى الدم المتدفق منه .
وكأنه أراد أن يشهد السماء على تفننه في الاثم والفضاعة والقسوة ، بعد
أن أشهد عليه الناس ، فانكبّ على الجثة الهامدة ، وألصق شفثيه
بالثقب الأسود ، وجعل يمتصّ الدماء الحارة !



هناك ، وعلى تلك الحال ، وجد رجال البوليس ذلك الحيوان
البشرى ، الذى أخطأت الطبيعة فى قذفه إلى هذا العالم إنساناً تحبل به
امراة وترضعه من لبن ثديها !

وعلى عود المشنقة ، كفر اسماعيل بك ياور أنور باشا ، عما اقترفه
نحو الانسانية من جرائم وآثام !



الزوجان العدوان

قال محدثي :

— وبعد أن قضينا ساعة كاملة في سفح الأهرام، نتحدث في شئون شتى ، وعدني صديقي الروسي أن يقصّ عليّ اليوم قصته ، فطلبت إليه أن يسمح لك بالذهاب معي إلى منزله ، لكي تدوّن ما يقوله وتنشره بين الناس إذا شئت ، فهيا بنا . لاتدع الفرصة السانحة تفلت منك . ترددت في قبول الدعوة . لكن صديقي ألح عليّ بالذهاب معه فذهبت .

دخلنا ذلك المنزل ، في شارع محمد علي بالقاهرة حيث كان المهاجر الروسي يسكن مع زوجته وخادمة عجوز . فاستقبلنا الرجل على الباب ببشاشة ولطف، ودعانا إلى الجلوس في غرفة صغيرة ، أعدت فيها المقاعد الشرقية حول منضدة مستديرة .

ثم قال صديقي :

— تعلم يامسيو « سرج » الغرض الذي جئنا من أجله الليلة . وقد سمحت لي أمس أن أحجب معي هذا الصديق الذي يتوق إلى معرفة حوادث الانقلاب الروسي الحديث ، فقص علينا قصتك حسب وعدك . فأطرق الرجل لحظة ، ثم رفع رأسه قائلاً :

— سمعاً وطاعة . . . لقد وعدتك ووعد الحرّ دين .

قال ذلك بلغة عربية فصحي ، فدهشت وسألته :

— أتحسن لغتنا إلى هذا الحد يا سيدي ؟

فنظر إلى طويلاً ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة تتم عن شيء من الحزن والأسى :

— نعم ، أحسنها لأنني درستها ، وتعمقت في درسها ، وسوف تعلم الداعي إلى ذلك في سياق الحديث . . .

وكانت الخادمة العجوز قد أحضرت القهوة . فشر بناها وقلت لمضيفنا :

— إن الديسر الذي سمعته منك يا سيدي يشوقني إلى سماع الكثير .

فتكلم إننا آذان صاغية .

فقص علينا الرجل ما يأتي ، أنقله إلى القاريء بحروفه :

قال « سرج تومازوف » :



الراهب الدجال راسبوتين
الذي عجّلت أعماله انهيار عرش روسيا

« ولدت في جبال القفقاس ، من أب مسلم وأم اسرائيلية ، وكان اسمي « أحمد برهان » . وكنت ضعيف البنية ، فأرسلني والدي إلى سورية حيث كانت تقيم إحدى شقيقاته ، فتلقيت العلوم في الجامعة الأميركية ، وعدت إلى القفقاس سنة ١٩٠٥ وأنا في العشرين من

العمر ، وهناك تزوّجت فتاة من بنات قرىتي ، وسافرت معها إلى العاصمة الروسية حيث دخلت في سلك الحرس الامبراطوري .

« هكذا نشأت ، وهكذا تلقيت العلوم .

« لكنني وجدت طريق التقدم ضيقاً في الجيش الروسي ، وكان الضباط ينظرون إلىّ نظرهم إلى الغريب ، لأن القوم متعصبون ، ولأن مذهبي الديني كان يثير في نفوسهم شيئاً من الكره والريبة ، ففكرت طويلاً في حالي وانتهى بي الأمر أن اعتنقت الدين المسيحي ، أي إنني تبعت زوجتي في عقيدتها .

« ولما هبت عاصفة الحرب العظمى ، سنة ١٩١٤ ، خضت غمارها ، وكنت في رتبة ملازم ، ولا أمدح نفسي إذا قلت لكما إنني أبلّيت في ميادين القتال بلاءً حسناً ، فقد قتت بواجبي كجندي من جنود الوطن الروسي ، وكضابط في حرس القيصر .

« ثم حدث ذلك الانقلاب الهائل في روسيا ، وأسقط القيصر عن عرشه ، وتشتت أعوانه ومريدوه ورجال حاشيته في طول البلاد وعرضها ، وعقب ذلك الانقلاب انقلاب آخر أشدّ هولاً منه ، أعنى به قيام الحكم الشيوعي على أنقاض الحكم القيصري ، ومطاردة خصوم البلشفيين ، وإغراق روسيا في بحر من الدماء .

« بقيت موالياً لأسرة رومانوف ، والتحتت بأحد أفرادها الذي فرّ

هارباً إلى أصقاع سيبيريا ، حيث جعلنا نلّم شعنا ، ونضم صفوفنا ،
لمهاجرة المقتصبين واسترداد الحكم .



لينين — معبود الشيوعيين

« أما زوجتي ، فقد تركتني في بتروغراد ، على أثر خلاف قام بيني وبينها ، لأنها كانت قد اعتنقت مذهب لينين السياسي والاجتماعي .
وقد تطوّعت في الجيش الأحمر ، وحاربت في صفوفه كأحد جنوده ،
وأظهرت من الشجاعة والإقدام ما أطلق السنة رؤسائها بالمديح والثناء ،
فأرسلوها إلى حدود سيبيريا ، وعينوها رئيسة لإحدى لجان السوفيات ،

وعهدوا إليها بمعاينة خصوم البلشفيين وتعذيبهم .

« وكان ذلك في سنة ١٩١٨ .

« قامت حركة معادية للينين وأعدائه ، وترأس تلك الحركة الأميرال كولتشاك ، الذي تطوَّعت في خدمته ، فاستولينا على سيبيريا وأوشكنا أن نقضى على أعدائنا هناك ، وأن نغزو روسيا وندخلها فاتحين .

« لكن الفظائع التي ارتكبتها جنودنا حالت دون ذلك ، فقد ثار علينا الفلاحون هناك ، وتكاثر علينا عددهم ، فغلبننا على أمرنا وألقينا السلاح من أيدينا .

« كثيراً ما تقرءون في الجرائد أن الجنود قد ارتكبوا ، ولا يزالوا يرتكبون في روسيا فظائع تقشعرُّ لهولها الأبدان . فكل ذلك صحيح لا مغالاة فيه . وقد وصلتني أخيراً نسخة من « الغازيتة الحمراء » ، وهي جريدة البلشفيين الرسمية ، فاسمح لي أن أتلو عليكم جزءاً من مقالة نشرتها تلك الجريدة بتاريخ ١٢ يونيو سنة ١٩٢٦ ، عن « مدينة الإرهاب » ، أي مدينة « كوزنتسك » في سيبيريا .

*
* *

نهض محدثنا وخرج من الغرفة ، ثم عاد حاملاً نسخة من جريدة روسية وأخذ يقرأ علينا ما يلي :

« عند ما كان الأميرال كولتشاك باسطاً سلطته على سيبيريا ، ارتكب جنوده نحو الفلاحين فظائع يعجز القلم عن وصفها ، فأدَّى ذلك

إلى نشوب ثورة محلية ، فألف الفلاحون عصابات أطلقوا عليها اسم «العصابات الحمراء» ، جعلت تشن الغارة على أعوان الأميرال ، الذين اضطروا من جهتهم إلى تأليف عصابات مثلها أطلقوا عليها اسم «العصابات البيضاء» ، لمقاومة الهجوم بالمهجوم والفظائع بالفظائع .

«وكان «الحر» إذا وقع بين أيديهم أحد من «البيض» أسيراً ، ينزعون عنه ملابسه ويسومونه العذاب أشكالا وألوانا . وكان «البيض» أيضاً ، إذا وقع بين أيديهم أحد من «الحر» ، يفعلون مثل ذلك بقسوة شيطانية ، لم يذكر التاريخ مثلها في عصوره المظلمة . وكثيراً ما كان أولئك الوحوش يعمدون إلى تجريد الأسير من ثيابه وإلقائه موثق اليدين في وسط الثلج وتركه يموت جوعاً وألماً .

«ولما استولى «روجوف» على مدينة «كوزنتسك» أمر جنوده بالقضاء على السكان فذبحوا منهم ألفين بين رجل وامرأة . فكانوا يدخلون المنزل ويقودون من فيه إلى عتبة الباب حيث يجردونهم من ملابسه ويذبحونهم ذبح الأغنام . ولم تسلم امرأة أو فتاة من تعدى الجند .

« وكان الجنود أحياناً يأتون بالأسير وينشرونه بمنشار شطرين ، كما حدث للملياف وبتروف »



وهنا ألقى سرج الجريدة من يده واستطرد قائلاً :



تروتسكى - يد لينين اليمنى فى اقامة النظام الشيوعى فى روسيا

« فى سنة ١٩١٩ ، قبض جنودنا على كوكبة من الفرسان البلشفيين
على أثر كمين نصبوه لها ، فوقع الجميع أسرى بين أيدينا . . . وكانت
زوجتى « كازين » معهم .

« تصوّرا موقفى ! كنت لا أزال أحارب فى صفوف أنصار الحكم
القيصرى ، وكانت زوجتى رئيسة لإحدى لجان السوفيات ، فحُيى بها
إلى معسكرنا ، فى جبال الأورال ، وزجت مع رفاقها فى سجن مظلم ،
فى انتظار حكم الإعدام بعد يوم أو يومين .

« رأيتها ، وعرفتها . لكنها لم ترني . فحاولت أن أدخل السجن ولكن المراقبة كانت شديدة ، فذهبت بمجهوداتي سدى ، وبقيت ذلك اليوم كله أفكر في طريقة أنتشل بها زوجتي من مخالب الموت .

« كانت عدوتي في المذهب السياسي ، لكنها كانت ولا تزال زوجتي . فتلاشت الأحقاد والضغائن أمام ذلك الخطر الذي كان يهددها ، وتذكرت الأيام التي قضيتها معها قبل تلك الثورة المشؤمة ، في سعادة وهناء .

« ولما ضاقت بي الحيل ، ذهبت إلى القيادة العامة ، وبسطت الأمر لقائدي ، طالباً منه أن يعفو عن زوجتي اعترافاً بما قمت به أنا من خدمات جليلة للقضية الوطنية ، وأن يمنحني حياتها جزاء إخلاصى وإقدامى .

« فتردد القائد طويلاً ، ثم التفت إلى وقال :

— إنك جندي شجاع وضابط من خيرة الضباط يا سرج . ولا يسعى إلا أن أجيبك إلى طلبك وأمنحك ما ترغب وتريد . ولكن لا بد من الرحيل عن هذه المدينة .

« فقلت له :

— كيف أرحل يا حضرة القائد والحرب الأهلية لم تضع أوزارها بعد ؟
« فأجابني وقد تقطب جبينه :

— لن نصل إلى نتيجة مرضية يا سرج ، وسيكون نصيبنا الفشل .

أجل ، سنضطرّ بعد أسابيع معدودة ، إما إلى التسليم وإما إلى الهرب .
 فاذهب الآن ، وابتعد عن بلاد لا أمل في إنقاذها من القوضى . إن
 العدو الذي نحارب به قوىّ شديد البطش ، لن نستطيع قهره .

« ثم نادى جندياً وأرسله في طلب الضابط الموكل إليه بحراسة
 الأسرى ، فأمره بحضور كاترين .

« عاد الضابط بعد حين ومعه زوجته مكبلة بالحديد .

« لا أطيل في شرح ذلك المشهد المؤلم . . .

« عانقتها — وعانقتني . . . وقبلتها وقبلتني . . . وكلمتها . . .
 ولكنها لم تجبني . . .

« ذلك لأنها فقدت حاسة النطق . . .

« فهمت منها بالإشارة أنها أصيبت برصاصة في عنقها ، وأنها نجت
 من الموت بأعجوبة .

« فهض القائد وصافحها قائلاً :

— لقد سمعت باسمك ياسيدتي ، وإني أغتم هذه الفرصة لأعبر
 لك عن إعجابي بك . لقد عقد عن النطق لسانك ، ولكن السنة من
 عرفوك ورأوك في ساحة القتال منطلقة بالثناء عليك . فاذهي الآن
 مع زوجك . لقد قتت بواجبك نحو حزبك ، كما قام هو بواجبه نحو
 حزبه . فابتعدا الآن عن هذه البلاد ، واهجرا السياسة والقتال .

« فشكرت له حسن صنيعه ، وخرجت مع زوجتي ! »



قيصر روسيا نيقولا الثاني بين أفراد أسرته



هذا ما قصه علينا « سرج تومازوف » الروسى القيصرى ، نزيل
مصر ، فى سنة ١٩٢٧ .

وقد قال لنا إنه سافر من جبال الأورال إلى رومانيا فوصل إليها بعد
ثلاثة أشهر ، وكان قد جمع مبلغاً من المال لا يستهان به . ولما سألناه
عن كيفية جمع ذلك المبلغ قال :

— لقد نهبت من الأعداء كما نهبوا هم أموالهم

ثمّ قال بعد سكوت قصير :

— مكثت مدّة في رومانيا ، ثمّ سافرت إلى اليونان ، ومنها جئت

إلى مصر حيث أقيم الآن . ولكنني سأسافر قريباً إلى القفقاس ، وقد
أستطيع الحصول على ما تركه لي والدي من عقار بعد وفاته . أما زوجتي
كاترين فأنها تقيم معي هنا ، في هذا المنزل ، لكنها لا ترغب في مقابلة
أحد . وقد أصبحت الآن من الأعداء البلشفيين ، ولا أشك في أنها
ستحاربهم في ميدان القتال لو أتيح لها ذلك .

فشكرنا للرجل حسن ضيافته وانصرفنا على أن نعود إليه . وعدنا
أكثر من مرّة . . .

ثمّ علمنا ذات يوم أنه غادر القاهرة عائداً إلى بلاده . وانقطعت
أخباره عنا منذ ذلك اليوم .



بين اليهود والنحور

دخل أحمد أغا الشركسى على صديقه افرام باشا ، فوجده واقفاً أمام صورة الغازى مصطفى كمال باشا ، غارقاً فى أفكاره ، شاخص البصر إلى ذلك الرسم الذى حلّ فى تركيا كلها محلّ رسوم السلاطين والغزاة وكبار القواد . حيّاه فلم يجب ، فاقترب منه ووضع يده على كتفه وقال :
 — ماذا عراك أيها الصديق ؟ لم أعرفك قط من المعجبين بالغازى .
 فما بالاك تنظر إليه نظرة المدنف المتصفح ؟ هل أمسيت أنت أيضاً من عشاقه ومريديه ؟

فالتفت افرام باشا إلى صديقه والشرر يتطاير من عينيه ، وأجاب بصوت باحٍ مختنق :

— معاذ الله أن أكون من عشاقه ومريديه يا صديقى ! إننى أكرهه وأضمر له الشرّ وأتمنى له العذاب والبؤس والتعاسة . لقد جنى هذا

الرجل علينا جميعاً . لكن في السماء إلهاً عادلاً سوف يقتص منه وينزل به العقاب عاجلاً أو آجلاً !

وألقي الرجل بنفسه على مقعد ، ماسكاً رأسه بيديه ، وأخذ يبكي بكاءً مرّاً . فجلس أحمد أغا بجانبه ، وجعل يهدئ ثورته ، طالباً إليه أن يطلعه على سرّه ، ويفضّى إليه بمكنونات صدره .
ولما عاد إلى افرام باشا رشده ، وتمالك نفسه ، نهض وأخذ صديقه من ذراعه قائلاً :

— هيا بنا أيها العزيز إلى حديقة القصر . وهناك سأطلعك على ما تجهل من قصة حياتي ، وأجعلك حكماً بيني وبين طاغية الترك ، الذي يعبد الناس ويسيرون وراءه كالنعاج الطائفة !



جلس الرجلان في ظلّ صفصافة ، في الحديقة الغناء ، المحيطة بذلك القصر الشاهق ، وبعد سكوت طويل كان افرام باشا في خلاله يتهدّ ويتهمّ كلمات مبهمّة ، خاطبه أحمد أغا ملحاً أن يقصّ عليه قصته ويتذرّع بالصبر والجلد :

— إن أعمالك وحركاتك الصبائية تدهشني وتقلقني . . . فقل لي . . . ما بك ؟

— سأتكلم . . . سأقول لك كلّ شيء . . . ولكن لا تقاطعني . . . بل دعني أستمّر في حديثي إلى النهاية ، ثمّ قل ما تشاء .



الغازى مصطفى كمال باشا

- افعل . إني لإرادتك خاضع طائع .
- لا حاجة بي يا صديقى إلى سرد تاريخ حياتى من بدئها . فانك تعلم كيف نشأت ، وكيف دفعنى حبّ المجازفة والمخاطرة إلى التجوّل سنوات عديدة فى بر الأناضول وجبال أرمينيا والقفقاس . وتعلم أيضاً أن

رحلاتي تلك أوحى إليّ باختيار مهنة يفشل فيها الخامل الجبان ، ويفوز
الجسور الشجاع . وأعني بها تجارة الرقيق . . .

« مرّت علىّ أيام سود ، ذقت فيها الأمرين ، وعانيت من
المصائب والمشقات ما يعجز الكلام عن وصفه . لكنني قاومت مقاومة
الأبطال ، وجاهدت جهاد المستميت ، فتغلبت على ما اعترضني من
عراقيل وعقبات ، وفزت بالجاه والثروة ، ورأيت النعم والأموال
والألقاب تتدفق علىّ من كل فج وصوب ، وأصبحت افرام باشا الذي
عرفته بالأمس ، الرجل المتمتع بجميع ما يحلم به إنسان من ملذّات ،
والذي تراه الآن أمامك خائر القوى ، ضعيف الإرادة ، ذليل النفس ،
يبكي بكاء الأطفال . . .

« أراك تسألني : ما عدا عما بدا ؟ ولماذا أصبح افرام باشا اليوم غير
الرجل الذي عرفه الناس بالأمس ؟ فاعلم يا صديقي أنني لا أقوى على
احتمال ما ينزله طاغية تركيا بنا من مصائب وويلات . أجل . لا أحتمل
ذلك ، ولا أرضى بأن تمحق تركيا التي عرفناها وورثناها عن آبائنا
وأجدادنا من الوجود ، لتقوم على أنقاضها تركيا أخرى ، بمدينة جديدة ،
وشرائع جديدة ، وقوانين جديدة ! لست يا صديقي من رجال السياسة ،
لكنني سأدافع عن تقاليدنا التي يحاول مصطفى كمال القضاء عليها . . .
« لقد ثار ثائري عند ما نادى الطاغية بتحريم تعدّد الزوجات
والاقتطاع إلى امرأة واحدة دون سواها من بنات جنسها ، لأنني رأيت

فى ذلك تعرضاً للحرية الشخصية ، واتهاكاً للشرائع الدينية والمدنية ،
 وخروجاً على التقاليد المرعية عندنا . وهذا هو سبب حزنى وكآبى .
 أريد أن أدافع عن العرف والتقاليد . لكننى ضعيف الحول وخصمى
 قوى منيع الجانب . ثم إننى أرى الشعب كله سائراً تحت لواء ذلك
 المبشر بمذهب جديد وبمدنية جديدة . ولاشك فى أنه سيكون الغالب
 المنتصر . فما العمل الآن ؟ لايسعنى أن أهجر نساى ولم يبق لى ما أرجوه
 من تجارتى ومزاولة مهنتى ! ماذا تنفع النخاسة وماذا ينفع الرقيق فى بلاد
 لا يقتنى رجالها أكثر من امرأة واحدة ؟ نعم . لقد أفل نجمى ، وقضى
 مصطفى كمال على آمالى وآمانى فى هذه الحياة ! »



مصطفى كمال باشا بالقبعة

وعاد افرام باشا إلى البكاء والنحيب ، فأدخله صديقه أحمد أغا
إلى القصر وودعه وانصرف ، ولسان حاله يقول :

— إن من يحاول إقناع المجانين بنخطتهم يكون مجنوناً مثاهم !



ظلّ افرام باشا يندب حظه ، ويأسف لما وصلت إليه تركيا في عهد
مصطفى كمال ، ويفكر في القرار الذي ينبغي عليه اتخاذه إزاء هذه الحالة
التي لم يكن ليطبق عليها صبرا .

فاكتنفته الهواجس ، وساورته الشجون ، وجاشت في صدره
ذكريات الماضي ، فجعل يستعرض حياته ، وأياماً خلت كان فيها يجوب
البلاد طولاً وعرضاً ، وفي ركابه العشرات بل المئات من الخدم والعبيد ،
فيهبط المدن والقرى ، ويتوغل في الجبال والمزارع ، ثم يعود إلى الاستانة
بما اقتنصه من ظبيات حسان ، فيختار لنفسه ولأعزّ عملائه أبرع
قنائصه جمالا وافتكهين لحظاً ، ويطرح الباقيات في سوق النخاسة ،
فيتهافت القوم عليهن ، ويحصل كلّ منهم على جارية ممشوقة القوام
أو بضعة الجسم ، حسب رغبته ومشيتته ، مقابل ما تساويه تلك النفس
البشرية المسكينّة من قطع ذهبية ، يوردها الوسطاء إلى خزائن النخاس
الأكبر ، افرام باشا . . .

رأى الرجل نفسه في حضرة السلطان عبد الحميد ، وقد ساق إليه
حسانه ، فاختر منهن السلطان طفلة باكية ، وفتاة فتانة ، وعذراء

انزعها زبانية النحاس من خدرها . . .

وعرضت السلع الباقية على رجال القصر فدفعوا ثمنها بكرم وسخاء . . .
ثم عاد افرام إلى قصوره ، واستعرض عبيده وجواريه وسراريه
الخمسة ، وتنقل في أملاكه الشاسعة ، المبعثرة هنا وهناك ، من الاستانة
إلى أزمير إلى أنقره إلى أريافان .

وتكرّم على كل من زوجاته الست والثلاثين بكلمة تلمطف ،
وبقضاء يوم وليلة في خدرها ، ثم شدّ رحاله من جديد إلى الصيد
والقنص . . .



مرّ الحلم ، وعاد الرجل إلى مواجهة الحقيقة ، فضايق صدره وقال في

نفسه :

— لا أجد منفذاً للخروج من هذا المأزق الذي زجّني فيه الطاغية ،
ولن أسمح لأحد بعدى بأن يتمتع بما تمتعت به . . . فلا بدّ من
الاستشهاد في سبيل الواجب ، في سبيل المهنة التي عشت منها ومن
أجلها . أما الجوّاري ، فليذهبن حيث شئن ، وأما الزّوجات فساخذهنّ
معى إلى العالم الآخر . . .

وجمع النحاس نساء الست والثلاثين ، في ذلك القصر الجميل ، الذي
وجده فيه صديقه أحمد أغا الشركي ، وخاطبنه قائلاً :

— لقد عزمتم على إحياء ليلة فرح وطرب ، جامعة لكل أسباب
الملذات والمسرات ، لم يذكر التاريخ وليمة مثلها . . . فالبسن أجمل
ما تملك من ثياب ، وتحلين بأثمن ما عندكن من مجوهرات ، فقد
أحرزت اليوم نصراً مبيناً على خصومي ، وقهرت أعدائي ونلت منى . . .

* *

جلس افرام باشا إلى المائدة ، وجلست زوجاته حواليه محيطة به
إحاطة السوار بالمعصم ، فأكلن وشربن ورقصن وأنشدن الأناشيد
والأهازيج . وبعد أن لعبت الخمرة في الرءوس ، نهض الرجل وقال :
— لقد أعددت لكن مفاجآت لم تحلمن بها قبل اليوم . . .
سأدخل هذه الغرفة ، وأنادي كلاً منكن بمفردها ، وأقدم لها الهدية
التي خصصتها بها . . .

ففرحت النساء وهلن ، ودخل افرام باشا تلك الغرفة التي أعد فيها
الجواهر والحلي ، ووضع بجانب كل هدية كأساً صب فيها سماً زعافاً . . .
ونادى نساءه الواحدة بعد الأخرى . . .

كانت المسكينة تخطو عتبة ذلك القبر الوهاج بما ترسله الجواهر
من لمعان وبروق ، وهي ضاحكة فرحة ، فتقبل من سيدها هديته ،
وتشرب الكأس في صحته ، وتخرج من باب آخر بإشارة من الرجل . . .
وهناك ، في قاعة أخرى ، كانت تجد من سبقها من الزوجات
التعسات ، يتقلبن على الأرض ، وقد سار السم الناقع في دماهن ،

ومشى في عروقهن ، ، وتغلغل في أجسامهن . . .

ولما أهدى افرام باشا هديته الأخيرة ، دخل القاعة التي أعدها مدفنائه ولزوجاته ، وهناك ، على نغم الزفرات والتأوهات التي كانت تصعدها صدور ضحاياه ، همّ بشرب الكأس التي احتفظ بها لنفسه ، مواجهاً الموت بقدم ثابتة . . .

لكن فكرة شيطانية تولدت في رأسه ، وهي الأخيرة . . .

— يجب أن أتأكد من موتكن جميعاً قبل أن أسقط على

الأرض بلا حراك !

واستل افرام خنجره ، واقترب من زوجته واحدة واحدة ، وطعن كلاً منهن طعنة نجلاء في قلبها ، تأكد منها أن المرأة لن تعود إلى الحياة. ثم شرب الكأس واستلقى بجانب أحبهن إليه ، وبعد أن وضع على جبينها قبلة حارة ، خاطب تلك الجثة الهامدة قائلاً :

— لقد خدعتكن ، ولـكننى فعلت ذلك في سبيل تقاليد مجتمعتنا التي اجتاحتها الخونة الأشرار . فالى اللقاء أيتها الزوجات الصالحات ، من تركيات وشركسيات وأرمنيات وكرجيات . سقيتكن السم بضمير مرتاح ونفس راضية ، وطعنتمكن بيد لم ترتجف قط . فالى اللقاء الآن ، في جنة النعيم التي لن يلج بابها من يلقبون أنفسهم بالمصلحين . لقد وفيت ديني نحو بلادى ومذهبي ومعتقدى وتقاليدي ، فالى اللقاء . . . إلى اللقاء . ! .

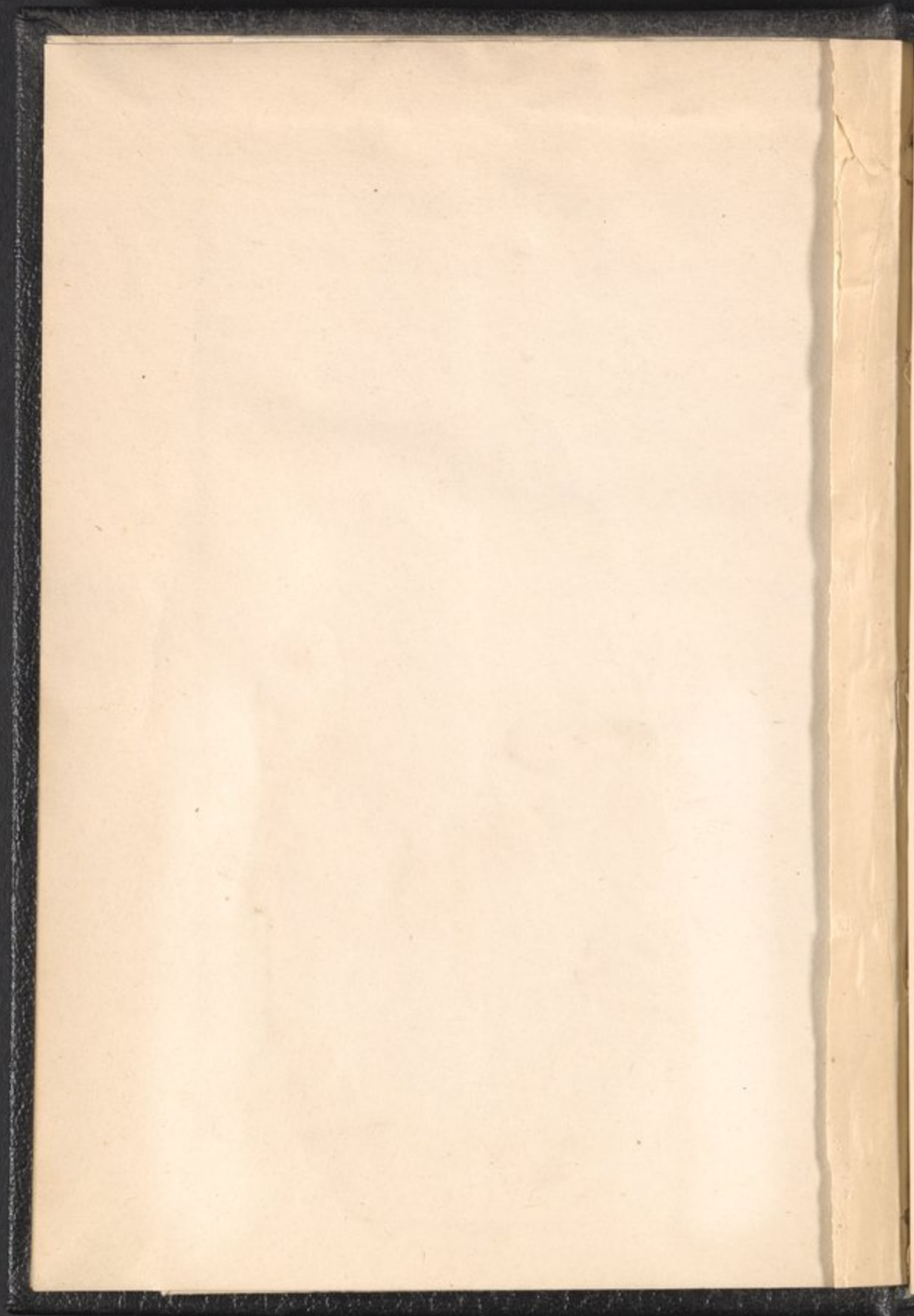
وبذلك الخنجر الذي خضبه بدماء ست وثلاثين زوجة ، طعن افرام
باشا نفسه في قلبه ، فسقط على جثة أحب نسائه إليه ، وفاضت روحه
في الحال . . .



بلغ أحمد أغا الشر كسى خبر جريمة صديقه الشنعاء ، فأسرع إلى
مكان الحادثة مع من أسرع إليه من رجال السلطة . ولما علم بما
حدث ، هز رأسه وقال :

— هذا ما كنت أنتظر . . . لقد ربح الرجل ثروة من المتاجرة
بالنهود والنحور ، وقضى حياته بين النهود والنحور ، وفاضت أنفاسه
بين النهود والنحور !





DATE DUE

Colt Salih	Costa (16)
------------	------------

25 MAY 1972

Sowray H Henda

11111	3
11111	3

28 DEC 99

A.Ü.Ç

4 - ARK 1991

Ad

27 NOV 2000

i 15236419
b1330642x

The American University in Cairo
Library

November 02, 1992



0 0 0 0 0 2 6 9 4 1 9

